جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم . وما يعدهم الشيّطان إلاّ غروراً . إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربّك وكيلا﴾.

وحينما ينجح اللّعين فى الإضلال وفى إهاجة الأمانى ، وليس لتلك الأمانى أو الوعود شئٌ من رصيد فى دنيا الواقع ، يسهل على اللّعين أن يأمر الضّحية بالمنكر فتطيع ، وينهاها عن المعروف فتمتثل ، وها هوذا اللّعين يتحوّل إلى الأمر . إنّه كما تدّرج فى الإضلال وفى الأمانى تدّرج فى الأمر .

إنّ هدف اللّعين الأبعد العبث بدين اللّه تعالى الّذى عبّر عنه فى القول كما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق اللّه ﴾ وقد مهّد لهذا الهدف البعيد بالأمر بهدف قريب موطّئٍ لذلك الهدف البعيد ومهيئ له : ﴿ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ﴾ .

ومعنى : ﴿ فليبتّكنّ آذان الأنعام﴾ فليقطّعنّ[١] وليشقّقنّ آذان الأنعام وجعل البتّك والقطع[٢] والتّشقيق سمةً وعلامة للبَحيرة والسّائبة والوصيلة[٣] وقد قال عزّ من قائل فى سورة المائدة[٤] : ﴿ ما جعل اللّه من بَحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولاحامٍ ولكن الّذين كفروا يفترون على اللّه الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ .

عن ابن عبّاس رضى اللّه عنهما : البحيرة هى النّاقة إذا نُتجت خمسة أبطن نظروا إلى الخامس فإن كان ذكراً ذبحوه فأكله الرّجال دون النّساء وإن كان أنثى جدعوا آذانها فقالوا هذه بحيرة[٥] .

(١) تفسير الطبرى ٥/ ١٨٠ والجلالين .
(٢) تفسير الطّبرى ٥/ ١٨٠ وتفسير القرطبى ١٩٥٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٦ وتفسير الطبرى ٥/ ١٨١ .
(٤) الآية : ١٠٣ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٧ .

وأمّا الوصيلة فإنّ الأنثى من نعمهم فى الجاهلية كانت إذا أتامت بطنًا بذكر وأنثى قيل قد وصلت الأنثى أخاها بدفعها عنه الذّبح فسمّوها وصيلة(١).

وأمّا السّائبة ، فقد قال محمّد بن إسحاق : السّائبة هى النّاقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهنّ ذكرٌ سُيّبت فلم تُركب ولم يجزّ وبرها ولم يُحلب لبنها إلا لضيف(٢).

وأمّا الحامى فعن ابن عباس هو الفحل من الإبل إذا وُلِدَ لولده قالوا حَمَى هذا ظهره فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزّون له وبراً ولا يمنعونه من حِمي رَعي ومن حوضٍ يشرب منه وإن كان الحوض لغير صاحبه (٣).

وهذه الأصناف الأربعة كما روي البخاريّ ومسلم والنّسائيّ تُتْرَك للطّواغيت(٤).

وهكذا يتبيّن أنّ أمر الشيّطان الرّجيم أولياءه بتقطيع آذان الأنعام وتشقيقها يراد به أن تُصْرَف إلي الطّواغيت ، كما يتبيّن أنّ المشركين إنّما فعلوا ذلك بإيحاءٍ من الشيطان الرّجيم ، وأنّهم يفترون علي اللّه تعالي الكذب حينما يزعمون أنّ اللّه سبحانه وتعالي هو الّذي جعل ذلك وهو حرّم تلك الأصناف من الأنعام .

ولمّا كان صرف تلك الأنعام إلي الطّواغيت مظهراً من مظاهر الشرّك، فقد كان هذا الصرّف والأمر بتقطيع آذان الأنعام دليلاً علي ذلك الصّرف تمهيداً لأن يخطو اللّعين أبعد الخطوات في الضّلال والكفر وذلك في القول علي لسانه كما جاء في الآية الكريمة : ﴿ ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق اللّه ﴾ إنّ اللّعين قد وصل إلي مستوي من يأمر فيطاع منذ المرّة السّابقة وليس وراء الأمر وراء في الدّلالة علي القدرة والسّلطة ، لهذا وقف اللّعين بالضّرورة عند الأمر في المرّة الرّابعة والأخيرة وهو المستوي الّذي وصل إليه في المرّة الثّالثة في هذه الآية الكريمة .

(١) تفسير الطبرى ٧/ ٥٧ .
(٢,٣) تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٨ .
(٤) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٠٧ وتفسير الطبرى ٥/ ١٨١ .

وما معني تغيير خلق اللّه تعالي في القول : ﴿ ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق اللّه ﴾ ؟ لتغيير خلق اللّه تعالي معنيان اثنان ، أحدهما دين اللّه تعالي ، والآخر ما يحدثه الخلق من تغيير لما خلق اللّه تعالي بإيحاء من الشيطان الرّجيم، كالوشم والنّمص وما إليهما في الإنسان وكالخصاء في البهائم . وإليك الدليل علي كلّ .

جاء في سورة الروم[١] قوله تعالي : ﴿ فأقم وجهك للدّين حنيفا . فطرة اللّه الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق اللّه ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون . منيبين إليه واتّقوه وأقيموا الصّلاة ولا تكونوا من المشركين. من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً . كلّ حزب بما لديهم فرحون ﴾ . ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّهص : كلّ مولود يولد علي الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تولد البهيمة بهيمةً جمعاء هل تجدون بها من جدعاء . وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمّاد قال : قال رسول اللّه : قال اللّه عزّ وجلّ : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشيّاطين فاجتالتهم[٢] عن دينهم وحرّمت عليهم ما أحللت لهم[٣] وهكذا يتبيّن أنّ معنى : ﴿ لا تبديل لخلق اللّه ﴾ لا تبديل لفطرة اللّه تعالي الّتي فطر النّاس عليها وخلقهم عليها باتّجاههم فطرياً نحو إفراد الله تعالى بالعبادة.

وبشأن المعنى الآخر قال ابن عبّاس: يعنى بذلك خَصِيَّ الدّواب[٤] وكذا رُوِيَ عن ابن عمر وأنس وسعيد بن المسيّب وعكرمة وأبى عياض وقتادة وأبى صالح والثّوريّ ، وقد ورد فى حديث النّهى عن ذلك . وقال ابن الحسن البصرىّ: يعنى بذلك الوشم. وفى صحيح مسلم النّهى عن الوشم فى الوجه. وفى لفظ: لعن اللّه من فعل ذلك. وفى الصحيح عن ابن مسعود أنّه قال : لعن

(١) الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

(٢) اجتالتهم الشيّاطين : حوّلتهم عن قصدهم واستخفّتهم فجالوا معها فى الضّلالة .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٦ .

(٤) الخَصِيّ : الّذى سُلَّت خُصيتاه ، بضمّ الخاء ، ونُزِعتا، المفرد خُصيّة .

اللّه الواشمات والمستوشمات والنّامصات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن(١) المغيّرات خلق اللّه عز وجلّ ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول اللّه ﷺ ، وهو فى كتاب اللّه عز وجلّ يعنى قوله : ﴿ وما آتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾(٢).

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ ومن يتخّذ الشيّطان وليّاً من دون اللّه فقد خسر خسراناً مبينًا ﴾ وهو ذو علاقة بالآية الكريمة السّابقة فى القسم . قال تعالى ﴿ومن يشاقق الرّسول مِنْ بعد ما تبيّن له الهدى ويتّبع غير سَبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونُصْلِه جهنّم وساءت مصيراً﴾ . إن الآية الكريمة تبيّن أنّ من يشاقق الرّسول ﷺ ويتّبع غير سبيل المؤمنين يكله اللّه تعالى إلى من تولاّه واستنصره . والآية الكريمة هنا تبيّن أن هذا المشاقق قد اتّخذ الشيّطان وليّاً له من دون اللّه تعالى وناصرًا، وتقرّر أنّ الخسران المبين كان حظّه فى الأولى والآخرة . إنّ مصيره فى هذه الحياة الأولى الخِذْلان وفى الآخرة جهنّم وساءت مصيرا .

والآيتان الكريمتان التّاليتان تبيّن أولاهما الخِذْلان فى الدّنيا وتبيّن أخراهما المأوى فى جهنّم وهاتان هما :

الآيتان رقم (١٢٠ ، ١٢١)

قال تعالى :

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

تتعلّق الآية الكريمة الأولى بالحياة الأولى وتشير إلى ثلاثة أمور ، وعود

(٤) المستوشمات : طالبات الوشم . والنّامصات : مزيّنات النّساء بنمْص شعر الوجه أى نتفه . والمتنمّصات : طالبات النّمص . والفَلَج بالتّحريك : تباعد ما بين الأسنان . والمتفلجّات : فاعلات الفلج .

(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٥٦ .

وأمانٍ وغرور . وحينما نعلم أنّ الوعود بطبعها كاذبة ، والأمانيّ لا رصيد لها من الواقع ، تضيق الفجوة بين هذه الأمور الثلاثة لأنّها جميعاً لا أساس لها من الواقع ولا من الحقيقة . والمعروف أنّ الوعد فى حال الصّدق أقرب بطبعه إلى إمكان تحقيقه ، أمّا الأمانيّ فإنّها أشبه بأحلام اليقظة ، هذا فى حال الصّدق أمّا فى حال الكذب كما هو الحال هنا فإنّها أشبه بأضغاث الأحلام .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تبدأ بذكر الوعود بسبب حظّها الموفور من احتمال التّحقّق فى حال الصّدق ، وتذكر بعد ذلك الأمانيّ بسبب حظّها القليل من احتمال التّحقّق .

ولّما كان الحديث هنا عن وعود اللّعين وأمانيّه فقد كان حديثٌ عن طبيعة الوعود ووصفٌ لها وسكوتٌ عن طبيعة الأمانى . جاء هنا القول : ﴿ وما يعدهم الشّيطان إلا غرورا ﴾ وجاء فى سورة الإسراء[١] القول ﴿ وَعِدْهم وما يعدهم الشّيطان إلا غرورا ﴾ فلماذا كان حديثٌ عن الوعد وسكوت عن الأمنيّة؟ .

من المعروف أنّا حينما نقارن بين الوعود والأمانى من ناحية احتمال التّحقّق بالنّسبة للصّادقين الأحرار نتبيّن أنّ الوعود أقرب إلى الدّخول فى دائرة احتمال التحقّق ، وأنّ الأمانى أقرب إلى الخروج من دائرة احتمال التحقّق . ولّما كان حديث الآية الكريمة عن وعود اللّعين وأمانيّه ، وكانت جميعها لا أساس لها من الصّحّة ، ولا رصيد لها من الحقيقة، تحدّثت الآية عن الوعود الأكثر قربًا من احتمال التّحقّق فوصفتها بأنّها غرورٌ وخداعٌ وتضليلٌ وكذب . وفى الحديث الصّريح عن طبيعة وعود اللّعين حديثٌ ضمنىّ عن أمانيّ اللّعين ، لأنّ الوعود الممكنة التّحقيق غرور ، فكيف بالأمانيّ الّتى هى فى أحسن صورها وعند الصّادقين ضربٌ من أحلام اليقظة . إنّ لسانَ حال الآية الكريمة يقول : إنّ وعود الشّيطان الرّجيم إذا كانت غروراً فإنّ أمانيّه أضغاث أحلام . وهكذا

(١) الآية : ٦٤ .

يتبيّن أنّ فى وصف الوعود بأنها غرورٌ كفاية . وأنّ السكوت عن وصف الأمانى أبلغ من وصفها وتعيين صفتها .

ومن البيّن أنّ صيغة الزّمن المضارع تأتى بشأن الجمل الثّلاث المتعلّقة بالوعود والأمانى ، والمعروف أنّ صيغة الزّمن المضارع توحى بالاستمرار والتّجدّد وتلك هى طبيعة وعود اللّعين وأمانيّه .

وإذا كانت الآية الكريمة قد تحدّثت عن نصيب حزب الشّيطان من وعوده المعسولة وأمانيّه الخياليّة ، وليس لأىّ منهما رصيدٌ من الحقيقة ، فإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن نصيب حزب الشّيطان يوم القيامة من نار جهنّم وعذاب السّعير. قال تعالى : ﴿ أولئك مأواهم جهنّم ولا يجدون عنها محيصاً﴾ إنّ مأواهم يوم القيامة ثمرةٌ نكدة لما وعدهم الشّيطان الرّجيم ومنّاهم به في الحياة الدّنيا. إنّ الثّمرة النكدة يوم القيامة نتيجةٌ حتميّة لنوع البذور فى الحياة الدّنيا . وبما أنّ البذور وعودٌ معسولة ، وأمانٍ كاذبة ، فإن الثّمرة النّكدة يوم القيامة دخولهم نار جهنّم الّتى هى مأواهم ومستقرّهم ولا يجدون عنها ولو حرصوا واجتهدوا محيصًا ولا مهربًا ولا مَعْدِلاً ولامفرّاً ولا مَصْرَفا.

وعلى عادة القرآن الكريم المتشابه المثانى الّذى من صفاته الحديث المتتابع عن المعنى وخلافه ، وبعد الحديث عن الكافرين يعود الحديث إلى المؤمنين الّذين سبق وصفهم فى السّياق بأنّهم يأمرون فى نجواهم بصدقة أو معروف أو إصلاح بين النّاس ، وكان الحديث عن هؤلاء المؤمنين فى الآيةً الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٢٢)

قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين آمنوا باللّه ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، وبمحمد ص نبيّاً ورسولاً ، والّذين عملوا الصّالحات وبذلك قدّموا الدّليل الفعليّ على إيمانهم ، سيدخلهم اللّه تعالى «جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » ويلاحظ بشأن القول : « سندخلهم » استعمال نون العظمة من ناحية والسّين الّتى تدلّ على القرب من ناحية أخرى . وتلك حقيقة الآخرة ، إنها قريبة مهما طالت بالإنسان حياة ، ولأنّ كل آت قريب . والمعروف أنّ المؤمن بطبعه مستعدّ بفضل اللّه تعالى وبإذنه جلّ وعلا للقاء وجه ربّه الأعلى ، فليست الآخرة منفصلةً عن الأولى فى يقين المؤمن ، وبذلك تكون الآخرة قريبةً من نفسه كلّ القرب ، وإنّ الخلود فى جنّات عدن ، الّتى لا يبغى المؤمنون عنها حِوَلا ، فى مقابل إرغام الكافرين على الخلود فى جهنّم ، الّتى لا يجدون عنها محيصًا ولا مَصْرَفا . وينبغى أن يكون لحرف الجرّ «فى» معناه الجليل فى الخير وذلك فى القول : «خالدين فيها أبداً » وذلك فى مقابل حرف الجرّ « عن » ذى المعنى الخطير فى الشّرّ وذلك فى القول : « ولا يجدون عنها محيصا » .

وفى مقابل وصف الآية الكريمة قبل السّابقة وعد الشّيطان الرّجيم بأنّه غرور يجئ فى المؤمنين أصحاب الجنّة قوله تعالى : ﴿ وعد اللّه حقّا ﴾ .

وفى مقابل التّحوّل من وعود الشّيطان المعسولة إلى الأمانىّ الكاذبة وذلك فى القول : « يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشّيطان إلا غروراً » وفى مقابل السّكوت عن وصف الأمانىّ بما تستحقّ اكتفاءً بوصف الوعود بأنّها غرور، لأنّ الوعود الممكنة التحقيق غرور فكيف بالأمانىّ غير الممكنة التحقيق ، فى مقابل التحوّل والسّكوت يكون فى هذه الآية الكريمة تحوّلٌ من الوعود الحقّ إلى الأقوال الصّدق . وهكذا يتبيّن أنّ التّحوّل هنا من أمرٍ إيجابى إلى أمرٍ آخر أشدّ إيجابيّة . قال تعالى : ﴿ والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سندخلهم جنّات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . وعد اللّه حقّا . ومن أصدق من اللّه قيلا ﴾ ولا أحد أصدق من اللّه تعالى قيلاً وحديثا .

(١٥)

الكُلُّ مجازَى بما عمل ، والحثّ على اعتناق دين الإسلام وعلى التقوى ، ولله ما فى السّماوات والأرض

الآيات (١٢٣ ـ ١٣٤)

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾
وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ
ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟
بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا
مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

تحدّث القسم السّابق عن المنافقين الّذين اجتهدوا فى صرف تهمة السّرقة عن السّارق منهم وإلصاق التّهمة بالبرئ ، وقد فضحهم اللّه تعالى ، وبيّن القسم عذاب المنافقين والمشركين الّذين يطيعون الشّيطان الرّجيم كما بيّن ثواب المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات . ولّما كان الإيمان ليس بالتّمنّى ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل ، فقد بيّنت أولى آيات القسم هذه الحقيقة . لقد فاخر أهل الكتاب المسلمين بسبق التّوراة والإنجيل وسبق موسى وعيسى عليهما الصّلاة والسّلام ، وفاخر المسلمون أهل الكتاب بنبيّهم محمدّ بن عبد اللّه ﷺ النّبىّ الخاتم وبكتابهم العزيز، القرآن الكريم المصدّق لما بين يديه من الكتاب المهيمن عليها ، فبيّن القرآن الكريم أنّ العبرة بالعمل وليس بالنّسب . إنّ من يعمل من سوء سوف يجزى به ومن يعمل من الصالحات سوف يجزى بها ، ولا يُظْلَم أحدٌ بمقدار ما فى ظهر النّواة من نُقْرة بحذف حسنة أو إضافة سيّئة . وتبيّن هذه الآية الكريمة التّالية أنّ الدّين عند اللّه الإسلام ، قال تعالى : ﴿ ومن أحسن دينًا ممّن أسلم وجهه للّه وهو محسنٌ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفا. واتّخذ اللّه إبراهيم خليلا ﴾ والمعنى لا أحد أحسن دينًا من المسلم للّه ربّ العالمين المحسن النّيّة والقول والعمل ، والّذى اتّبع ملّة إبراهيم حنيفا ، وقد اتّخذ اللّه تعالى إبراهيم عليه السّلام خليلا . ولّما كان محمّد ﷺ أولَى النّاس بإبراهيم عليه السّلام وقد بعثه اللّه تعالى بالحنيفيّة السّمحة الكاملة دين إبراهيم عليه السّلام ، فذلك يعنى أنّ المراد بدين الإسلام الدّين الّذى بعث اللّه تعالى به محمداً ﷺ ، والنّاسخ لسائر الأديان ، والّذى ينبغى أن يعتنقه كلّ النّاس ابتداءً باليهود والنّصارى. وقد فُهِمَ من الآية الكريمة الشّرطان اللّذان يلزمان لقبول اللّه تعالى الأعمال الصّالحة . لقد فُهِمَ من جملة ﴿ أسلم وجهه للّه ﴾ صحّة العمل الموافق لتعاليم القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ ، وفُهِمَ من جملة: ﴿ وهو محسن ﴾ إخلاص العمل للّه تعالى. وقد سيطر على جوّ المعانى فى هذا القسم تقرير الحقيقة بأنّ للّه تعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض، نتبيّن هذا إثر تقرير الحقيقة بأنّ الدّين عند اللّه الإسلام. إنّ الّذى يعلن ذلك مَنْ

بيده ملكوت كلّ شئ . وعقب هذا التّقرير يأخذ السّياق بيد مجموعة من الضّعفاء وبخاصّة النّساء ويتامى النّساء ، فبيّن حقوقهنّ وحقوق المستضعفين من الولدان ، كما يُعْنى بالمرأة الّتى خافت من بعلها نشوزًا أو إعراضًا فيرشد إلى الصّلح ، ويوصى الأزواج بخاصّة بالإحسان إلى الزّوجات وتقوى اللّه تعالى فيهنّ لأنّهم فى موطن القوّة . ومع أنّ السّياق يشير إلى عفو اللّه تعالى عن الأزواج فيما لا سلطة لهم عليه من ميل القلب إلى إحدى الزّوجات فإنّه يأمر بالعدل فيما وراء ذلك ويأمر بالإصلاح وبالتّقوى . وفى حال الطّلاق يبشّر السّياق كلاًّ من الزّوجين بأن اللّه تعالى سيغنيه من واسع فضله ورحمته . وإذا كان الحثّ على التّقوى مرتبطًا بالأقوياء من الأولياء والأزواج ، فإنّ السّياق يعود أكثر من مرّة إلى تقرير حقيقة أنّ للّه ما فى السّماوات وما فى الأرض ، فاللّه هو العلىّ الكبير ، كما يعود إلى الحديث عن التّقوى مقرّرًا أنّه جلّ وعلا أمر بها أهل الكتاب من قبل ويأمر بها المسلمين من بعد . وإنّ المفروض فى العباد أنّ يتّقوا اللّه تعالى لأنّ الثّواب عائدٌ إليهم ، فإن هم كفروا فليعلموا أنّ اللّه تعالى هو الغنىّ الحميد ، وأنّه قادرٌ على أن يذهبهم ويأتى بآخرين لن يكونوا أمثالهم . وبما أنّ الإنسان محاسبٌ ومجازى يوم القيامة وَحْدَه ، فلماذا لا يكون كبير الهمة يرجو الثّواب من اللّه تعالى فى الأولى والآخرة ذلك الثّواب الّذى يتجلّى فى الحياة الطيّبة. إنّ كلّ ذلك إنّما يتحقّق بتقوى اللّه تعالى السّميع البصير .

الآية رقم (١٢٣)

قال تعالى :

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

سبب النزول :

قال مسروقٌ وقتادة :احتجّ المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب :

نحن أهدى منكم : نبيّنا قبل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم ، ونحن أولى بالله منكم . وقال وقال المسلمون : نحن أهدى منكم وأولى بالله ، نبيّنا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضى على الكتب الّتى قبله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ثمّ أفلَجَ الله(١) حجّة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله تعالى : ومن يعمل من الصّالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، وبقوله تعالى: وَمَنْ أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله . الآيتين (٢) وعن ابن عبّاس رضى الله عنه أنّه قال فى هذه الآية : تخاصم أهل الأديان فقال أهل التّوراة : كتابنا خير الكتب ، ونبيّنا خير الأنبياء . وقال أهل الإنجيل مثل ذلك . وقال أهل الإسلام : لا دين إلا الإسلام . وكتابنا نسخ كلّ كتاب ، ونبيّنا خاتم النّبيّين ، وأُمِرتُم وأُمِرنا أن نؤمن بكتابكم ونعمل بكتابنا ، فقضى الله بينهم وقال : ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب. من يعمل سوءاً يجز به . الآية. وخيّر بين الأديان فقال : ومن أحسن دينًا ممّن أسلم وجهه لله هو محسن . إلى قوله : واتّخذ الله إبراهيم خليلا(٣) .

تقرّر الآية الكريمة أنّ دخول الجنّة ليس بأمانىّ المسلمين ولا بأمانىّ أهل الكتاب وأنّ مجردّ الانتساب إلى الدّين لا يكفى ، بل لابدّ من تقديم الدّليل على الإيمان النّظرىّ وهوعمل الصّالحات . إن الأمانىّ إذا كانت حبيسه النّفوس والقلوب ولم يشفعها عمل الصّالحات كانت ضربًا من أحلام اليقظة وأضغاث الأحلام . إنّ صدر الآية الكريمة : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ﴾ يعنى الاكتفاء بتمنّىّ الأمانىّ على الله تعالى بدخول الجنّة والحصول على النّعيم المقيم ، دون أن يقترن بذلك شئ من عمل الصّالحات ، بل ربّما كان مجردّ

---

(١) افلج من الفلج بالجيم بمعنى الظّفر .

(٢) أسباب النّزول للواحدى ٢١٢ وانظر تفسير الطّبرى ٥/ ١٨٥ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٥٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٧.

الانتماء إلى الإيمان حاملاً لبعض النّاس على المنّ به والإدلال بسببه[١] حتّى يتجاوز الانحطاط إلى الدّرك الّذى يقال معه : أدلّ فأمل[٢] إلى عمل السّيئات بعد التّقصير فى عمل الصّالحات . وإنّ هذا المعنى البعيد الّذى تفيده الجزئيّة الكريمة ضمنًا ، تصرّح به الجزئيّة الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿من يعمل سوءًا يُجْزَ به ولا يجد له من دون اللّه وليًّا ولا نصيرًا﴾ إنّ كلّ من يعمل سوءًا يسوء به غيره أو يكسب خطيئةً أو يرتكب إثمًا سوف يجزى به يوم القيامة ، وربّما سبق جزاءَ يوم القيامة الجزاء فى هذه الحياة الأولى والعقاب . روى الإمام أحمد أنّ أبا بكر رضى اللّه عنه ، قال : يا رسول اللّه كيف الفلاح بعد هذه الآية : ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءًا يجز به ، فكلّ سوءٍ عملناه جزينا به ، فقال النّبىّ ﷺ غفر اللّه لك يا أبا بكر . ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللّأواء[٣] قال : بلى . قال : فهو مما تُجْزَون به[٤] وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : لما نزلت : من يعمل سوءًا يجز به ، شقّ ذلك على المسلمين فقال لهم رسول اللّه ﷺ : سدّدوا وقاربوا فإنّ فى كلّ ما يصاب به المسلم كفّارة حتّى الشّوكة يشاكها والنّكبة ينكبها[٥] .

وإنّ هذا الّذى يعمل سوءًا ويخالف الرّسول ﷺ ويتّبع غير سبيل المؤمنين ويتّخذ الشّيطان الرّجيم وليًّا له من دون اللّه تعالى وسواه جلّ وعلا سوف لن يجد من دون اللّه تعالى وليًّا يتولّى شئونه ويرعى مصالحه ولا نصيرًا ينصره من عذاب اللّه تعالى بمنعه أو صرفه أو تخفيفه .

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدّث عن عقاب من يعمل السّيّئات فإنّ الآية

---

(١) يقال : أدلّ عليه وثق بمحبّته فأفرط عليه إدلالاً . انظر اللّسان .

(٢) لسان العرب «دلل» .

(٣) اللّأواء : الشّدّة والمحنة .

(٤) تفسير ابن كثير ١/٥٥٧ ، وتفسير الطّبرى ٥/١٨٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/٥٥٨ ، وتفسير الطّبرى ٥/١٨٨ .

الكريمة التّالية تتحدّث عن ثواب من يعمل الصّالحات فإلى :

الآية رقم (١٢٤)

قال تعالى : وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ من يعمل من الصّالحات وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنّة ويخلدون فى النّعيم المقيم . والآية الكريمة تستعمل حرف الجرّ من الّذى يفيد التّبعيض وذلك فى القول : «ومن يعمل من الصّالحات» وذلك من رحمة اللّه تعالى بعباده : « لأنّ كلّ واحد لا يتمكّن من عمل كلّ الصّالحات وإنّما يعمل منها ما هو تكليفه وفى وسعه »(١) وتنصّ الآية الكريمة على الجنسين ، الذكر والأنثى ، وعليه تكون « مِنْ » للتّبيين وذلك فى القول: « ومن يعمل من الصّالحات من ذكرٍ أو أنثى» لأنّ الجنسين سواءٌ فى أصل التّكليف وقد قال تعالى(٢) : ﴿ إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين اللّه كثيراً والذّاكرات أعدّ اللّه لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ .

والمراد بالصّالحات الأعمال الصّالحات ، والضّابط للصّلاح أن تكون موافقةً لتعاليم القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ .

وتشترط الآية الكريمة صفة الإيمان فى كلّ من الذّكر والأنثى : «ومن يعمل من الصّالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن » والمؤمن هو الّذى يؤمن باللّه تعالى ربّاً، وبالإسلام النّاسخ لسائر الدّيانات ديناً ، وبمحمّد ﷺ ، خاتم النّبيّين

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٥٦.
(٢) سورة الأحزاب ٣٥ .

وأشرف المرسلين، نبيّاً ورسولا، وبالقرآن الكريم المهيمن على الكتب السّماويّة السّابقة الأمين عليها الحافظ لها، دستورا. ونستطيع أن نفهم أنّ صفة الإيمان سابقة على عمل الصّالحات وشرطٌ لها . ونستطيع أن نفهم من صفة الإيمان فى القول : « وهو مؤمن» أمرين اثنين آخرين . أحدهما أنّ صفة الإيمان بالمعنى الّذى تبيّنّا تعنى أنّ الإسلام ناسخٌ للدّيانات السّماويّة السّابقة، ومن باب الأولى الدّيانات غير السّماويّة. وآخرهما أنّ صفة الإيمان يصحّ أن تعنى أنّ هذه الأعمال الصّالحة يجب أن يكون الباعث عليها الإيمان وابتغاء وجه اللّه تعالى وَحْدَهُ لا شريك له ، وليس الرياء والسّمعة وحسن الأحدوثة وما إلى ذلك . وسوف نتبيّن أنّ الآية الكريمة التّالية تتضمّن هذه المعانى .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ أولئك المؤمنين من الذّكور والإناث الّذين يعملون الصّالحات سوف يدخلون بفضل اللّه تعالى وبرحمته الجنّة الّتى فيها ما لاعينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولا يُظْلَمُ واحدٌ بحذف حسنة أو إضافة سيئة بمقدار النُّقرة الّتى فى ظهر النّواة(١) والنُّكتة فى ظهرها(٢) فى القِلّة فكيف بما هو أعظم من ذلك وأكثر(٣) .

وما الذى تتّسع له هذه النّقرة فى ظهر النواة أو النّقطة ؟ إنّها لا تتّسع لشئ خاصّة وأنّ الآية الكريمة تستعمل لفظةً ذات علاقة بالنّواة وبالتّمر، وما أشدّ علم العرب بكلّ أجزاء النّخلة وبخاصّة سكّان المدينة المنوّرة الّذين تعتبر النّخلة جزءًا لا يتجزّأ من حياتهم . إنّ النُّقرة يُضْرَب بها المثل فى الشّئ الطّفيف(٤) .

وإنّ ما فُهِم فى الآية الكريمة من كون الإسلام ناسخاً لسائر الدّيانات

---

(١) تفسير الطّبرى ٥/ ١٩٠ ، وتفسير ابن كثير ١/ ٥٥٩ .

(٢) انظر مثلاً أساس البلاغة « نقر » .

(٣) تفسير الطّبرى ٥/ ١٩٠ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى « نقر » ٥٠٣ .

وكون الأعمال الصّالحة يجب أن يراد بها وجه اللّه تعالى يُفْهَمُ بوضوح أشدّ فى الآية الكريمة التّالية فإلى :

الآية رقم (١٢٥)

قال تعالى :

وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾

تردّ الآية الكريمة على اليهود والنّصارى الّذين ذهب كلّ منهما إلى أن دينه خيرٌ من دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به محمّد بن عبد اللّه ص . وإنّ الأدب القرآنى لا يجعل المقارنة بين الأديان الثلاثة مباشرة ، ولا يجعل التفضيل بين الرّسل الثّلاثة بصريح العبارة ، ولكن يكون ثمّة تحوّل إلى إبراهيم عليه السّلام ، خاصّة وأنّنا لسنا فى مناسبة توزّع فيها الصّفات على الأديان الثّلاثة أو على الرّسل الثّلاثة كى يفهم ما فضّل اللّه تعالى به كلاً منهم من صفة ، وما اختصّ جلّ وعلا به بعضهم دون بعض ، وذلك على غرار قوله عزّ من قائل فى سورة البقرة[1] : ﴿تلك الرّسل فضّلنا بعضهم على بعض . منهم من كلّم اللّه ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس﴾ إنّ موسى عليه السّلام كليم اللّه ، وإنّ عيسى عليه السّلام قد آتاه اللّه البيّنات وأيّده بجبريل عليه السّلام ، وإن محمّد بن عبد اللّه ص الّذى يتوسط فى الآية الكريمة عِقْد هؤلاء الرّسل الثّلاثة ، قد رفعه اللّه تعالى درجات .

إنّ الآية الكريمة تشير إلى الإسلام ، وإلى الإحسان ، وإلى إبراهيم عليه السّلام خليل الرّحمن . إنّ المراد بالإسلام الدّين الّذى بعث اللّه تعالى به محمّد بن عبد اللّه ﷺ ، وإنّ المراد بالإحسان الدّرجة الثّالثة بعد الإسلام والإيمان كما بيّنها المصطفى ﷺ. وإنّ المراد باتّباع ملّة إبراهيم حنيفاً اتّباع محمّد

(١) الآية : ٢٥٣ .

ﷺ الّذى أوحى اللّه تعالى له بالقول[١] : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان المشركين ﴾ .

وإنّ هذا القول الموجز بحاجة إلى شىءٍ من البَسْط .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّه لا أحد « أحسن دينًا ممّن أسلم وجهة للّه وهو محسنٌ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفا » والمعروف أنّ الإسلام معناه الاستسلام للّه تعالى بالخضوع ، والانقياد له جلّ وعلا بالطّاعة ، والخلوص من الشّرك. والمعروف كذلك أنّ كلّ أنبياء اللّه تعالى ورسله إنّما بعثهم اللّه تعالى بدين الإسلام وبرسالة التّوحيد، ابتداءً بنوحٍ عليه السّلام ، وانتهاءً بمحمّد ﷺ الّذى حمل دينه النّاسخ لسائر الأديان اسم الإسلام . وإنّ الآية الكريمة فى تنبيهها إلى نسخ دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به محمّدًا ﷺ سائر الأديان تقول: ﴿ ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه للّه ﴾ بمعنى استسلم للّه تعالى وخضع وأذعن واتّبع هذا الرّسول الخاتم صلوات اللّه تعالى وسلامه عليه . وإنّما اختير الوجه فى الآية الكريمة من بين سائر جسد الإنسان لأنّ الوجه أشرف الأعضاء وفى إسلامه واستسلامه وخضوعه إسلامٌ لسائر الجسد التّابع للوجه . ولا تكتفى الآية الكريمة بدرجة الإسلام وما أعظمها وأجلّها ، وإنّما تشير إلى مرتبة الإحسان الّتى يصل إليها المسلم بعد المرور بدرجة الإيمان بأركانه السّتّة ، بقصد حمل المسلم للّه ربّ العالمين على العمل من أجل الوصول إلى أسمى الدّرجات وأرفع الغايات. والإحسان كما بيّنه المصطفى ﷺ : أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك[٢] .

ولا تكتفى الآية الكريمة فى التّنبيه على أنّ الإسلام ناسخٌ لليهوديّة والنّصرانيّة وسائر الدّيانات بالقول : « ومن أحسن دينًا ممّن أسلم وجهه للّه وهو محسن » إنّما تضيف إلى ذلك القول « واتّبع ملّة إبراهيم حنيفا » أى اتّبع

(٢) سورة النحل : ١٢٣ .

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٠ .

دين إبراهيم عليه السّلام حنيفا ومائلاً عن الشّرك قصداً[١] ومائلاً عن الضّلال إلى الاستقامة[٢] عمدا. إنّ هذه هى حقيقة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء الّذى آتاه اللّه تعالى رشده قبل البلوغ فمال عن الشّرك إلى التّوحيد قصداً وعمداً . وإنّ الآية الكريمة تذكّرنا بقوله تعالى خطابًا للمصطفى ﷺ فى سورة النّحل[٣] : ﴿ ثمّ أوحينا إليك أن اتّبع ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ وبقوله تعالى فى سورة آل عمران[٤] : ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلمًا وما كان من المشركين . إنّ أولى النّاس بإبراهيم للّذين اتّبعوه وهذا النّبىّ والّذين آمنوا . واللّه ولىّ المؤمنين ﴾ وبقوله تعالى فى سورة الحج[٥] : ﴿ يا أيّها الّذي آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون . وجاهدوا فى اللّه حقّ جهاده . هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدّين من حرجٍ ملّة أبيكم إبراهيم . هو سمّاكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرّسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على النّاس فأقيموا الصّلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا باللّه هو مولاكم فنعم المولى ونعم النّصير ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة هنا تنصّ على اتّباع ملّة إبراهيم عليه السّلام الحنيفيّة السّمحة ، كما أنّ الآية الكريمة من سورة النّحل تأمر المصطفى ﷺ بأن يتّبع ملّة إبراهيم عليه السّلام الحنيفيّة السّمحة . وهكذا يتبيّن أنّ القرآن الكريم يبيّن لنا الطّريقة الّتى يتمّ بواسطتها اتّباع إبراهيم عليه السّلام وحنيفيّته السّمحة عن طريق اتّباع محمّد بن عبد الله ﷺ. والمعروف أنّ محمّد بن عبد اللّه ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين قد بعثه اللّه تعالى بالحنيفيّة السّمحة الّتى ليلها كنهارها وبالنّسخة الأخيرة الكاملة من حنيفيّة إبراهيم عليه السّلام أبى الأنبياء .

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٥٩ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى « حنف » ١٣٣ .

(٣) الآية : ١٢٣ .

(٤) الآية : ٦٧ ، ٦٨ .

(٥) الآية : ٧٧ ، ٧٨ .

ومن اللّطيف أنّ نقرّر أنّ القرآن الكريم بيّن لنا نحن المسلمين أنّ لنا أسوةٌ حسنةً فى إبراهيم عليه السّلام وفى محمّد بن عبد الله ﷺ . جاء بشأن إبراهيم عليه السّلام قوله عزّ من قائل فى سورة الممتحنة(١) : ﴿ قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ فى إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برءاء منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدًا حتّى تؤمنوا بالله وحده إلاّ قول إبراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شئ . ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا واغفر لنا ربّنا إنّك أنت العزيز الحكيم . لقد كان لكم فيهم أُسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتولّ فإنّ الله هو الغنىّ الحميد ﴾ وجاء بشأن محمّد ابن عبد الله ﷺ قوله عزّ من قائل فى سورة الأحزاب(٢) : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾.

وهكذا يتسنى اتّباع ملّة إبراهيم حنيفاً واتّخاذه أسوةً حسنةً عن طريق اتّباع ملّة محمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين واتّخاذه عليه الصّلاة والسّلام أسوةً حسنةً وأنموذجاً يُحتَذى . والمعروف أنّ الرّسول الوحيد الّذى يمكن أن يُتّبع اتّباعا كاملاً ويتّخذ أسوةً حسنةً بسبب سلامة المصادر ودقّتها وكمالها هو محمّد بن عبد الله ﷺ، لأنّ حياته عليه الصّلاة والسّلام وسيرته فى غاية الوضوح والكمال ، لأنّها تُستَمدُّ من القرآن الكريم الّذى تكفّل الله تعالى بحفظه ، ومن سنّته ﷺ الّتى صانها الله تعالى وباركها ، ومن كتب السّيرة الموثوقة والتّاريخ ومن الشّعر الصّحيح المعاصر على جهة الخصوص . إنّا لو أردنا أن نتّخذ من إبراهيم عليه السّلام مباشرةً أسوة حسنةً لا نستطيع لأنّا لا نكاد نعرف عن صحف إبراهيم عليه السّلام الّتى جاء ذكرها فى القرآن الكريم سوى الاسم . وإذا كان هذا حظّ الصّحف الموحى بها من الله تعالى فكيف بسواها ؟

---

(١) الآيات : ٤ - ٦ .

(٢) الآية : ٢١ .

وبهذا يتبيّن أنّ فى اتّباع ملّة محمّد بن عبد الله ﷺ اتّباعاً لإبراهيم عليه السّلام. كما يتبيّن نسخ دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به محمّد بن عبد الله ﷺ لسائر الأديان ، فعلى كل أتباع الدّيانات الأخرى ، ابتداءً باليهود والنّصارى، أن يتّبعوا الرّسول النّبيّ محمّد بن عبد الله ﷺ الّذى يجدونه مكتوباً عندهم بنعته فى التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى لموسى عليه السّلام وفى الإنجيل الّذى أوحاه الله تعالى لعيسى عليه السّلام .

والآية الكريمة فى سبيل حثّ المسلمين على معالى الأمور بعد أن تذكر الإسلام تذكر الإحسان وقد عرفنا معناه . ويمكن أن يفهم وراء ذلك من الإحسان إحسان كلّ شئ فليس الأمر مقصوراً على الدّين وشئونه بل وعلي الدّنيا وشئونها .

ومن العلماء من فهم من صدر الآية الكريمة الشّرطين اللّازمين لقبول الله سبحانه وتعالى الأعمال الصّالحة . يقول ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[1] : « ومن أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه لله ، أى أخلص العمل لربّه عزّ وجلّ فعمل إيماناً واحتسابا. وهو محسن ، أي اتّبع فى عمله ما شرعه الله له وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحقّ . وهذان الشّرطان لا يصحّ عمل عاملٍ بدونهما ، أي يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله . والصّواب أن يكون متابعاً للشّريعة فيصحّ ظاهره بالمتابعة وباطنه بالإخلاص . فمتى فقد العمل أحد هذين الشّرطين فسد . فمتى فقد الإخلاص كان منافقاً ، وهم الّذين يراءون النّاس . ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً . ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الّذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيّئاتهم . الآية . ولهذا قال تعالى : واتّبع ملّة إبراهيم حنيفا . وهم محمّد وأتباعه إلى يوم القيامة ».

وفى التّذييل : ﴿ واتّخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ الله

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٥٩ .

سبحانه وتعالى قد اتّخذ إبراهيم عليه السّلام أبا الأنبياء خليلاً « لأنه إمامٌ يُقْتَدَى به حيث وصل إلى غاية ما يَتَقَرَّب به العباد له ، فإنّه انتهى إلى درجة الخُلّة الّتى هى أرفع مقامات المحبّة، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربّه كما وصفه به فى قوله : وإبراهيم الّذى وفّى. قال كثيرٌ من علماء السّلف : أى قام بجميع ما أُمِرَ به وفى كلّ مقام من مقامات العبادة، فكان لا يشغله أمرٌ جليلٌ عن حقير ولا كبيرٌ عن صغير»(١).

وكما كان للمصطفى ﷺ أوفر الحظّ والنّصيب من قوله تعالى عن إبراهيم عليه السّلام : ﴿ واتّبع ملّة إبراهيم حنيفًا ﴾ إذ المراد محمّد ﷺ وأتباعه إلى يوم القيامة، كذلك كان له عليه الصّلاة والسّلام أوفر الحظّ والنّصيب من قوله تعالى ﴿واتّخذ اللّه إبراهيم خليلا﴾ فقد ثبت فى الصّحيحين من رواية أبى سعيد الخدرىّ أنّ رسول اللّه ﷺ لمّا خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال أمّا بعد أيّها النّاس ، فلو كنت متّخذا من أهل الأرض خليلاً لاتّخذت أبا بكر بن أبى قُحافة خليلاً ، ولكنّ صاحبكم خليل اللّه(٢).

ولمّا كانت الآية الكريمة تتحدّث فى أمورٍ لا يعلم حقيقتها إلا اللّه تعالى ، لأنّها متعلّقة بالقلوب كالإسلام والإحسان وإخلاص العمل للّه تعالى ، فقد كان فى الآية الكريمة التّالية تحوّلٌ إلى ما هو أكبر من هذا المستوى من علمٍ وقدرةٍ فإلى :

الآية رقم (١٢٦)

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ للّه سبحانه وتعالى وَحْدَهُ لا شريك له كلّ ما فى السّماوات وما فى الأرض ، ملكاً وخلقاً وعبيداً . وكان اللّه سبحانه وتعالى و

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٥٩.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٠ .

دائمًا وأبدًا المحيط علمًا بكلّ شئ ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شئٌ فى الأرض ولا فى السّماء ، ولا يعزب عنه عزّ وجلّ مثقال ذرّة فى السّماوات ولا فى الأرض ومن ذلك حقيقة نيّات العباد وأقوالهم وأعمالهم .

ولمّا كانت عناية السّورة الكريمة كبيرةً بشئون النّساء وهى الّتى تحمل اسمهنّ، وكان ممّا يحتاجه العباد من علمٍ ما له عَلاقةٌ بشئون النّساء ، فقد تحدّثت الآيات الكريمات التّاليات فى بعض أمورهنّ الدّقيقة ، وشئونهنّ الخطيرة، وبيّنت العلاج النّاجع لبعض قضاياهنّ فإلى :

الآية رقم (١٢٧)

قال تعالى :

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

سبب النّزول :

قال البخارىّ (١) : « حدّثنا عبيد بن إسماعيل حدّثنا أبو أسامة حدّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى اللّه عنها : ويستفتونك فى النّساء قل اللّه يفتيكم فيهنّ، إلى قوله : وترغبون أن تنكحوهنّ ، قالت : هو الرّجل تكون عنده اليتيمة هو وليّها ووارثها فتشركُهُ فى ماله حتّى فى العذْق(٢) فيرغب أن ينْكحهَا ويكره أن يزوّجها رجلاً فيشركُهُ فى ماله بما شركته فيَعْضلُها . فنزلت هذه الآية» وكذلك رواه مسلم(٣) قالت عائشة: والّذى يُتْلى عليهم فى الكتاب

(١) صحيح البخارى ٦/ ٦١ .

(٢) العذق من النّخلة بكسر العين كالعنقود من العنب وبالفتح النّخلة بحملها .

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١ ، وانظر تفسير الطّبرى ٥/ ١٩١ .

الآية الأولى الّتى قال اللّه فيها : وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى[١] وقال اللّه تعالى فى الآية الأخرى : وترغبون أن تنكحوهن ، رغبة أحدكم عن يتيمته الّتى تكون فى حِجْره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا فى مالها وجمالها من يتامى النّساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهنّ . رواه مسلم[٢] .

وفى ضوء ما روي عن عائشة رضى اللّه تعالى عنها فى سبب نزول هذه الآية الكريمة والآية الكريمة الثّالثة من السّورة الكريمة وحديث كلّ من الآيتين الكريمتين عن إحدى حالتى اليتامى من النّساء فى حال الرّغبة فيهنّ من قبل الولىّ مرّة والرّغبة عنهن مرّة أخرى يقول ابن كثير[٣] : « والمقصود أنّ الرّجل إذا كان فى حِجْرِه يتيمة يحلّ له تزويجها فتارةً يرغب فى أن يتزوّجها فأمره اللّه أن يمهرها أسوة أمثالها من النّساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النّساء فقد وسّع اللّه عزّ وجلّ، وهذا المعنى فى الآية الأولى الّتى فى أوّل السّورة . وتارةً لا يكون فيها رغبة لدمامتها عنده أو فى نفس الأمر فنهاه اللّه عزّ وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه فى ماله الّذى بينه وبينها كما قال علىّ ابن أبى طلحة عن ابن عبّاس فى الآية وهى قوله : فى يتامى النّساء . الآية . كان الرّجل فى الجاهليّة تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك فلم يقدر أحدٌ أن يتزوّجها أبداً . وإن كانت جميلةً وهويها تزوّجها وأكل مالها. وإن كانت دميمةً منعها الرّجال أبداً حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها ، فحرّم اللّه ذلك ونهى عنه » .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : ويستفتونك يا محمّد فى شأن النّساء[٤] ويَطْلُبُ منك[٥] ويسألك يا محمّد أصحابك أن تفتيهم فى أمر النّساء[٦] قل يا محمّد اللّه سبحانه وتعالى يفتيكم فيهنّ ويبيّن لكم حال ما

(١) سورة النساء : ٣ .
(٢) انظر أسباب النّزول للواحدى ٢١٥.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦١ .
(٤) تفسير الطّبرى ٥/ ١٩١ والجلالين .
(٥) البحر المحيط ٣/ ٣٥٩ .
(٦) تفسير الطّبرى ٥/ ١٩١ ، وانظر تفسير القرطبى ١٩٧٢ .

سألتم عنه وحكمه[١] .

ويلاحظ أنّ الصّحابة رضوان اللّه تعالى عليهم يسألون المصطفى ﷺ ويطلبون الفتوي[٢] والإفتاء[٣] ولكنّ ربّ العزّة هو الّذي يجيب ويُفْتي . روي أشهب عن مالك قال : كان النّبي ﷺ يُسْأل فلا يجيب حتّي ينزل عليه الوحي ، وذلك في كتاب اللّه : يستفتونك في النّساء قل اللّه يفتيكم فيهنّ ، ويسألونك عن اليتامي ، و: يسألونك عن الخمر والميسر ، يسألونك عن الجبال[٤] .

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ اللّه سبحانه وتعالي يفتي السائلين في شأن النساء ويفتيهم فيما يُتْلَي عليهم في الكتاب ويُقْرأ عليهم في شأن يتامي النّساء اللّاتي لا يرغب الأولياء أنْ يؤتوهنّ ما لهنّ وحقوقهنّ الّتي كتبها اللّه تعالي لهنّ وفرضها في كتابه العزيز ، واللّاتي لا يرغب الأولياء في نكاحهنّ والزّواج بهنّ .

والمراد بما يُتْلي في القرآن الكريم في شأن يتامي النّساء الآية الكريمة الثّالثة من السّورة الكريمة . قال تعالي . ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامي فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثني وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدني ألا تعولوا ﴾ .

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة الّتي تشير إلي الآية الكريمة الثّالثة في السّورة تأتي بالجديد رداً علي السؤال وطلب الفتوي . إنّ الّذي يتعلّق بالآية الكريمة الثّالثة من السورة الكريمة القول هنا : ﴿ وما يتلي عليكم في الكتاب في يتامي النّساء اللاتي لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ ﴾ والّذي كتب اللّه تعالي لهنّ هنا

(١) البحر المحيط ٣/ ٣٥٩.
(٢) الجلالين .
(٣) البحر المحيط ٣/ ٣٥٩.
(٤) تفسير القرطبى ١٩٧٢ .

الصّداق . وإنّ الّذي يتعلّق بطلب الفتوي القول : ﴿ وترغبون أن تنكحوهنّ ﴾ والمعني : وترغبون عن أن تنكحوهن[١] وكما شمل هذا القول : ﴿ وما يتلي عليكم في الكتاب في يتامي النّساء الّلاتى لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ ﴾ يتامي النّساء الّلاتى رغب الأولياء في الزّواج بهنّ فأمروا بإعطائهنّ مهورهنّ ، شمل هذا القول كذلك يتامي النّساء الّلاتى رغب الأولياء عنهنّ وعن الزّواج بهنّ . وبما أنّ الصّداق لا مكان له هنا لأنّه ليس ثمة زواجٌ أصلاً ، فإن المراد بالّذي لا يؤتيه الأولياء يتامي النّساء أموالهنّ وحقّهنّ في الميراث .

وكما يفتي الحقّ جلّ وعلا السّائلين في شأن النّساء يفتي جلّ وعلا في المستضعفين من الولدان، قال تعالي : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ والمعني :« قل اللّه يفتيكم فيهنّ وفيما يتلي عليكم في الكتاب وفي المستضعفين من الولدان »[٢] وقد كانوا في الجاهلية لا يورّثون الصغّار ولا البنات كما قال ابن عبّاس ، فنهي اللّه عن ذلك وبيّن لكلّ ذي سهم سهمه فقال : للذّكر مثل حظّ الأنثيين ، صغيراً كان أو كبيراً[٣] ومن البيّن أنّ القول في الآية الكريمة : ﴿ الّلاتى لا تؤتونهنّ ما كتب لهنّ ﴾ يتّسع معناه كي يشمل البنات الّلاتى لا يؤتيهنّ الأولياء حقّهن من الميراث ، ويلحق بهنّ الصّغار .

ومعني القول : ﴿ وأن تقوموا لليتامي بالقسط ﴾ يفتيكم اللّه في النساء وفيما يتلي عليكم في الكتاب وفي المستضعفين من الولدان[٤] وفي أن تقوموا لليتامي بالقسط ، أي بالعدل[٥] بأن يؤتوهم حقوقهم من الميراث لأنّهم كانوا لا يورّثون الصّغار من أولاد الميّت[٦] وبأن يؤتوا اليتامي أموالهم ، وبألاّ يتبدّلوا الخبيث الحرام من أموال اليتامي بالطّيّب الحلال من أموالهم ، وبألاّ يأكلوا أموالهم إلي أموالهم ، وبأن يخشوا اللّه تعالي ويتّقوه، وبأن يقولوا

(١) انظر تفسير الطبرى ٥/ ١٩٥ .
(٢) تفسير الطبرى ٥/ ١٩٥ .
(٣) انظر تفسير الطبرى ٥/ ١٩٦ وتفسير ابن كثير ١/ ٥٦١ .
(٤) انظر تفسير الطبرى ٥/ ١٩٥ .
(٥) تفسير الطبرى ٥/ ١٩٥ ، ١٩٦ .
(٦) تفسير الطبرى ٥/ ١٩٥ .

لليتامي قولاً سديداً وطيّبًا في كل الأحوال ، وبخاصة حينما يكون اليتامي دون الحُلُم ولا يحسنون التّصرّف في أموالهم . إنّ الحُسْن والطّيب ينبغى أن يكون دائماً وأبداً صفة الكلام الّذي يوجّهه الأولياء إلي اليتامي .

إنّ كلّ الأمور الّتي عرضت لها الآية الكريمة تتمشّي مع قوله تعالي (١) : ﴿ يا أيها اللّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون ﴾ وهي أمور شديدة الحاجة لفعل الخير بشأنها لأنّها متعلّقةٌ بالضّعفاء الّذين هم بحاجةٍ إلي من يأخذ بأيديهم ويشدّ من أزرهم وإلا أكلهم الظالمون ـ لا سمح اللّه ـ وهؤلاء الضعفاء هم النّساء ويتامى النّساء والمستضعفون من الولدان واليتامي بعامّة . إنه بسبب كلّ هذه المعاني والملابسات كان في التذّييل تركيزُ علي فعل الخير وحثٌ علي الإكثار منه وتنبيهٌ علي علم اللّه تعالي المحيط بكلّ شئ، ومن ذلك الخير الّذي يريده الوليّ وكلّ إنسان لهؤلاء المستضعفين أو الشرّ ـ لا سمح اللّه ـ : ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ فإن اللّه كان به عليما ﴾ ومن البيّن اتّجاه الخطاب في التذييل إلي السّائلين وإلي كلّ النّاس وراء ذلك . إنّ التّذييل يقرّر أنّ كلّ خيرٍ يفعله الإنسان ولو كان قليلاً كما يفهم من حرف الجرّ من الّذي يفيد التّبعيض في القول : «من خير» فإنّ اللّه سبحانه وتعالي هو العليم ، هكذا في صيغة المبالغة . عليمٌ به وبالباعث عليه فلا يخفي علي الله تعالي شئٌ في الأرض ولا في السّماء ، كما لا يخفي عليه جلّ وعلا شئٌ من نيّةٍ أو قولٍ أو فعل .

وممّا له عَلاقةٌ بشئون النّساء الّتي تفتقر إلي الخير من قِبَلِ الرّجال أعني الأزواج، أن يكون ثمّةخوف لدي الزوجات من نشوز أزواجهنّ وتعاليهم عليهنّ أو إعراضهم عنهنّ. إنّ الآية الكريمة التالية تعالج هذا الشأن من شئون الزّوجات فإلي :

(٤) سورة الحج : ٧٧ .

الآية رقم (١٢٨)

قال تعالي :

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

سبب النّزول :

جاء في صحيح البخاري (١) : « عن عائشة رضي الله عنها : ﴿وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً﴾ قالت الرّجل تكون عنده المرأة ليس بمُستكثرٍ منها يريد أن يفارقها فتقول : أجعلك من شأني في حِلّ . فنزلت هذه الآية في ذلك» وفي الصحيحين عن عائشة قالت : لمّا كبرت سودة بن زمعة (٢) وهبت يومها لعائشة فكان النّبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة (٣) وذلك أن سودة كانت امرأةً قد أسنّت ففَرِقَتْ أن يفارقها رسول الله ﷺ وضنّت بمكانها منه ، وعرفت من حب رسول الله ﷺ عائشة ومنزلتها منه ، فوهبت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة ، فقبل ذلك رسول الله ﷺ (٤) وماتت وهي من أزواجه ﷺ(٥) .

أشارت الآية الكريمة السابقة إلي طلب الصّحابة رضوان الله تعالي عليهم من النّبي ﷺ أن يفتيهم في شئون النّساء وإلي إفتاء الله تعالي فيهنّ وفي اليتامي منهنّ، إضافةً إلي المستضعفين من الولدان واليتامي بعامّة ، وهذه الآية الكريمة التّالية تتحدّث في شأن من شئون النّساء ، وذلك حينما تخاف الزوجة نشوز

(١) ٦/ ٦٢ وانظر أسباب النّزول للواحدى ٢١٥ ، وتفسير ابن عطية ٤/ ٢٤٥ .
(٢) زمعة : بسكون الميم وفتحها .
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٢ .
(٥) تفسير القرطبى ١٩٧٤ .

زوجها ورفع نفسه عنها وتعاليه عليها من النّشْز بسكون الشّين مصدر نشَزَ ينشِز وينشُز إذا أشرف علي نشز، بفتح الشين ، من الأرض ، وهو المكان المرتفع(١) وحينما تخاف الزوجة إعراض زوجها عنها . قال النّحّاس الفرق بين النّشوز والإعراض أنّ النّشوز التّباعد ، والإعراض ألاّ يكلمها ولا يأنس بها (٢) ويقول أبو حيّان (٣) : والنّشوز أن يجافي عنها بأن يمنعها نفسه ونفقته والمودّة الّتي بينهما وأن يؤذيها بسبّ أو ضرب. والإعراض أن يُقِلّ محادثتها ومؤانستها لطعن في سنّ أو دمامة أو شين في خُلُق أو خَلْق أو ملال أو طموح عين إلي أخري أو غير ذلك. وهو أخفّ النّشوز»

وممّا يلفت النّظر بشأن القول : ﴿ وإن امرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾ أنّ الآية الكريمة تستعمل لفظة البعل وليس لفظة الزّوج .والمعروف أنّه يكثر في القرآن الكريم استعمال لفظة الزّوج ويقلّ استعمال لفظة البعل. وحينما نتبيّن المعني الّذي تفيده لفظة بعل هنا يصحّ أن نتبيّن الحكمة من اختيار الآية الكريمة لفظة بعل القليلة الاستعمال في القرآن الكريم . يقول الراغب(٤):« البعل هو الذّكر من الزّوجين . قال اللّه عزّ وجلّ :وهذا بعلي شيخاً . وجمعه بعولة نحوفحل وفحولة . قال تعالي: ﴿وبعولتهنّ أحقّ بردّهن﴾ ولما تُصُوِّر من الرّجل الاستعلاءُ علي المرأة فَجُعِل سائسها والقائم عليها كما قال تعالي : ﴿الرّجال قوّامون علي النّساء ﴾، سمّي باسمه كلُّ مستعلٍ علي غيره ، فسمّي العرب معبودهم الّذي يتقرّبون به إلي اللّه بعلاً لاعتقادهم ذلك فيه في نحو قوله تعالي :﴿أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ ويقال : أتانا بعل هذه الدّابة، أي المستعلي عليها . وقيل للأرض المستعلية علي غيرها بعل ، ولفحل النّخل بعل ، تشبيهاً بالبَعل من الرّجال ، ولما عَظُم حتّي يشرب

(١) انظر مثلاً مفردات الرّاغب الأصفهانى « نشز » ٤٩٣ والقاموس المحيط « نشز » .

(٢) تفسير القرطبى ١٩٧٣ .

(٣) البحر المحيط ٣/ ٣٦٣ .

(٤) المفردات « بعل » : ٥٤ .

بعروقه بعل لاستعلائه . قال ﷺ: فيما سُقِي بَعلاً العُشْر. ولمّا كانت وطأة العالي علي المستولي عليه مستثقلةً في النّفس قيل : أصبح فلانٌ بعلاً علي أهله أي ثقيلاً لعلوّه عليهم . وبُنِيَ من لفظ البعل المباعَلةُ والبِعالُ كنايةً عن الجماع » .

وهكذا يتبيّن أنّ المعنى الّذى تدور حوله مادّة « بعل » الاستعلاء المادّىّ والمعنوى . وحينما توحى لفظة بعل بالاستعلاء ، تكون موطّئةً للتّحوّل إلى النّشوز ومهيئةً للانتقال إليه بيسر وسهولة لاشتراكهما فى العلوّ والارتفاع ، ولاشتراكهما فى التّحوّل من العلوّ والارتفاع فى المحسوسات إلى المعنويّات . وهكذا تتبيّن الحكمة من استعمال لفظة بعل فى الآية الكريمة . وقد عرفنا أنّ الإعراض أخفّ النّشوز . وبهذا يكون المعنى : وإن امرأةٌ خافت من بعلها ، وإن زوجةٌ خشيت من زوجها ، نشوزاً عليها ، وتجافيًا عنها ، أو إعراضاً قلبياً عنها ، فلا يكثر من محادثتها ومؤانستها وملاطفتها بسبب ملاله منها أو طموح عينه إلى سواها ، فلا جناح عليهما ولا حرج ولا إثم على الزّوج وزوجته أن يصلحا بينهما صلحًا . ويلاحظ مجئ ظرف المكان «بين» وعدم استغناء الآية الكريمة عنه لأنّ هذا شأنٌ خاصٌ بهما وهما وَحْدَهُما يستطيعان أن ينتهيا معاً إلى الحلّ الوسط ، كأن تتنازل المرأة عن حقّها كلّه أو بعضه فى القَسْم والنّفقة والسّكن وما إلى ذلك علي ألا يطلّقها زوجها ، على نحو ما فعلت سودة بنت زمعة رضى اللّه تعالى عنها الّتى تنازلت لعائشة رضى اللّه تعالى عنها عن ليلتها رغبةً منها رضي اللّه تعالى عنها أن تُحْشَر فى نسائه ﷺ .

و« صلحا » مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر فهو اسم مصدر(١) ويقول أبو حيّان(٢) :« ورتّب رفع الجناح على توقّع الخوف وظهور أمارات النّشوز والإعراض، وهو مع وقوع تلك وتحقّقها أولى ، لأنّه إذا أبيح الصّلح مع خوف ذلك فهو مع الوقوع أو كد ، إذ فى الصّلح بقاء الألفة والمودّة» ولهذا جاء بعد ذلك قول الحقّ تبارك وتعالى:« والصّلح خير » « لفظٌ عامٌ

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ١٥٩ ، وتفسير ابن عطيّة ٤/ ٢٤٧ .
(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٦٣ .

مطلقٌ يقتضى أنّ الصّلح الحقيقى الّذى تسكن إليه النّفوس ويزول به الخلاف خيرٌ على الإطلاق . ويدخل فى هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصّلح بين الرّجل وامرأته فى مالٍ أو وطء أو غير ذلك . خير : أى خير من الفرقة فإنّ التمادي على الخلاف والشّحناء والمباغضة هى قواعد الشّرّ ، وقد قال عليه السّلام فى البِغضة : إنّها الحالقة ، يعنى حالقة الدّين لا حالقة الشّعر»(١) .

ومن البيّن أنّ قول الحقّ جلّ وعلا : « والصّلح خير » جملةٌ معترضة تجرى لنفاستها مجرى المثل . إنّ الصّلح خيرٌ على الإطلاق . ومن البيّن أنّ هذه الجملة المعترضة « والصلح خير » وطّئ لها بنفى الحرج عن الزّوجين إذا اصطلحا فى حال النّشوز أو الإعراض المتوقّع أو الواقع فعلاً . وبذلك تكون الجملة المعترضة : «والصّلح خير» تأكيداً لنفى الحرج من ناحية ، وحثّاً عليه من ناحية أخرى ، فثمّة تدرّج وتطوّر من حال إلى حالٍ أرفع منها .

وبعد الحثّ على الصّلح وإطلاق خيريّته يعود السيّاق إثر الجملة المعترضة إلى الحال الأصليّة الّتى انطلق منها تحبيذ الصّلح وهى حال نشوز الزّوج أو إعراضه . قال تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشّحّ ﴾ . إنّ الشّحّ بخلٌ مع حرص(٢) وبشأن هذه الجزئيّة الكريمة يقول العُكْبَرىّ فى التّبيان فى إعراب القرآن(٣) : «أحْضرْتُ يتعدّى إلى مفعولين ، تقول : أحضرت زيداً الطّعام ، والمفعول الأول الأنفس ، وهو القائم مقام الفاعل ، وهذا الفعل منقولٌ بالهمزة من حضر . وحضر يتعدّى إلى مفعول واحد ، كقولهم : حضر القاضيَ اليوم امرأة »وعليه يكون الإعراب : الواو عاطفة . أُحْضِرت : فعل ماضٍ مبنى للمجهول . والتّاء للتّأنيث . الأنفس : نائب فاعل مرفوع . الشّحّ مفعولٌ به منصوب(٤) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٩٧٦ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى « شح » ٢٥٦ .

(٣) ١/ ٣٩٦ .

(٤) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣/ ١٦٠ .

وفى بلاغة الجزئيّة الكريمة يقول الزّمخشرى[١] : « ومعنى إحضار الأنفس الشّحّ أنّ الشّحّ جعل حاضراً لها لا يغيب عنها أبداً ولا تنفكّ عنه . يعنى أنّها مطبوعةٌ عليه . والغرض أنّ المرأة لا تكاد تسمح بقسمتها وبغير قسمتها والرّجل لا تكاد نفسه تسمح أن يقسم لها وأن يمسكها إذا رغب عنها وأحب غيرها » ويقول أبو حيّان[٢] : «هذا من باب المبالغة ، جعل الشّحّ كأنّه شىءٌ معدّ فى مكان وأحضرت الأنفس وسيقت إليه ، ولم يَأْتِ وأحْضَرَ الشّحُّ الأنْفُسَ فيكون مسوقًا إلى الأنفس ، بل الأنفس سيقت إليه لكون الشّحّ مجبولاً عليه الإنسان ومركوزاً فى طبيعته» .

وكما كان النّساء فى الآية الكريمة السّابقة وسائر المستضعفين بحاجة إلى أن يفعل الخير فى حقّهم لذلك جاء فى الآية الكريمة القول : ﴿ وما تفعلوا من خير فإنّ اللّه كان به عليما ﴾ ومادام المقصود بفعل الخير رضا اللّه تعالى فإنّه جلّ وعلا سيثيب عليه ، ولمّا كانت المرأة هنا بالذّات بحاجة إلى أن يحسن إليها الزّوج النّاشز أو المعرض فإنّ الآية أشارت إلى حقّ هذه الزّوجة وإلى حقّ اللّه تعالى . قال عزّ من قائل : ﴿ وإن تحسنوا وتتّقوا فإنّ اللّه كان بما تعملون خبيراً﴾ .

إنّ الآية الكريمة رفعت الجناح عن الزّوجين أن يصطلحا ، وقرّرت أنّ الصّلح خير ، وبيّنت طبيعة النّفس الإنسانيّة المفطورة على حبّ الخير لذاتها ، وطبيعة نفس كلٍّ من الزوج والزّوجة فى الشّحّ الّذى كأنّه حاضرٌ لا يغيب عنها، وكأنّها لحرصها عليه تذهب إليه فى مكانه ، وها هى ذى الآية الكريمة وقد أعطت كلّ ذى حقٍّ حقّه، تحثّ الزّوج فى المقام الأوّل على الإحسان ، لأنّ موقفه أقرب إلى القوّة والاستعلاء ، ولاشكّ أنّ للزّوجة نصيباً فى الأمر بالإحسان إلى الزّوج ، كما تحثّ الآية الكريمة كلاًّ من الزّوجين على تقوى اللّه

(١) الكشّاف ١/ ٤٢٧.

(٢) البحر المحيط ٣/ ٣٦٣.

تعالى فى الآخر. ونحن إذا نظرنا إلى الإحسان من زاوية العباد وإلى التّقوى من زاوية ربّ العباد استطعنا أن نفهم منهما شرطي قبول اللّه تعالى أعمال العباد، الصّلاح والإخلاص . أمّا الصّلاح فيفهم من جملة : « وإن تحسنوا » وأمّا الإخلاص فيفهم من جملة و «تتّقوا» وسبق أن تمّ الفهم ذاته من إسلام الوجه للّه تعالى والإحسان وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أحسن ديناً ممّن أسلم وجهه للّه وهو محسن ﴾ .

وإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة تقرّر أنّ من يُحْسِنُ إلى عباد اللّه تعالى ومن يتّقى اللّه تعالى فإنّ اللّه سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يعمل . وصفة الخبير تنبّه إلى علم اللّه تعالى المحيط بالباطن ومن باب أولى الظّاهر . إنّ الآية الكريمة قبل السّابقة تقرّر إحاطة اللّه تعالي بكل شيء علمًا ، وإنّ الآية الكريمة السّابقة تقرّر علم اللّه تعالى بكل شيء ، وإنّ هذه الآية الكريمة تقرّر علم اللّه تعالى بباطن الأمور . قال تعالى : ﴿ وإن تحسنوا وتتّقوا فإنّ اللّه كان بما تعملون خبيراً ﴾ وإنّ فى النّص على الخبرة تنبيهًا للعباد بوجوب إخلاص العمل للّه تعالى الّذى يعلم ما توسوس به كلّ نفس ، ويجول فى كلّ خاطر ، وتناغمًا مع الإحسان والتّقوى .

ولمّا كانت الزّوجة التى خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً إنّما تصطلح مع زوجها على البقاء فى عصمته مقابل تنازلها مضطرةً عن بعض حقوقها ، فقد حثّت الآية الكريمة الأزواج بخاصة على الإحسان إلى الزّوجات وتقوى اللّه تعالى بقصد تخفيف ما قد تشعر به الزّوجة من حيفٍ لحق بها وظلم نالها ، وكأنّ فى ذلك حثًا على العدل والإنصاف والبعد عن الظلم . وإنّ هذا الّذى يُفْهَم من حثٍّ على العدل وبُعْدٍ عن الظّلم تحثّ عليه الآية الكريمة التّالية بصريح اللّفظ فإلى :

الآية رقم (١٢٩)

قال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

الآية الكريمة ذات علاقة بالآية الكريمة الثّالثة من السّورة الكريمة . قال تعالى ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا﴾ . ومن البيّن أنّ الحثّ على العدل يتكرّر فى ثلاثة مواضع في الآية الكريمة ، فى صدرها : ﴿ وإن خفتم ألاّ تقسطوا فى اليتامى ﴾ والمعنى أنّ الأولياء إذا خافوا ألاّ يعدلوا فى حقّ اليتيمات وألا يعطوهنّ مهر المثل ففى إمكانهم أن يجاوزوا اليتامى خوف ظلمنهنّ وأنّ ينكحوا ما طاب لهم من النّساء حتّى أربع . وفى وسط الآية الكريمة : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانكم ﴾ والمعنى إن خفتم ألا تعدلوا بين زوجاتكم فانكحوا واحدةً واكتفوا بها أو ما ملكت أيمانكم من أسيرات الحروب إذ ليس لهنّ من الحقوق ما للزّوجات . وفى التّذييل : ﴿ ذلك أدنى الاّ تعولوا ﴾ والمعنى أنّ اكتفاءكم بواحدة أو بما ملكت أيمانكم أقرب إلى ألاّ تجوروا وتظلموا ، أى أقرب إلى أن تعدلوا .

وهكذا يتبيّن أنّ سماح الإسلام للرّجل بأن يتزوّج بأربع زوجات شريطة العدل بينهن فيما يملك من قَسْم ونفقة وعشرة بالمعروف وما إلى ذلك . وإنّ الآية الكريمة التى نحن بصددها تقرّر فى أسلوب الخطاب للأزواج بأنّهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النّساء ولو حرصوا . ومن البيّن أن « لن » تفيد النفى على التّأبيد ، وكأنّ هذا القول: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حرصتم ﴾ ذو علاقة متينة بالقول فى الآية الكريمة الثالثة : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا ﴾ ولكن هذه الآية

الكريمة الثّالثة أذنت للمؤمن أن يتزوج حتى أربع نسوة . لذلك نتبيّن الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقرّر حقيقة من تزوج أكثر من واحدة من زواية العدل بين الزّوجات ، تلك الحقيقة الّتى لا يعلمها إلا خالق الإنسان العالم بما توسوس به نفسه .

إنّ الآية الكريمة فى حديثها عن العدل تتجاوز ما هو فى مقدور الإنسان وطاقته من نفقة ركسوة وقَسْم وعشرةٍ بالمعروف وما إلى ذلك ، إلى ما ليس فى مقدور الإنسان وطاقته وهو الميل القلبى . إنّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرّحمن جلّ وعلا، وإنّ اللّه سبحانه وتعالى يحول بين المرء وقلبه ، وإنّ الإنسان ليس له سلطةٌ على قلبه ولكنّ له سلطةً على ما سوى القلب . إنّ الآية الكريمة تقرّر بشأن القلب فى أقوى عبارة بأنّ المرء ليس له سلطةٌ على هذا القلب ، لهذا هو لن يستطيع أنّ يعدل بشأن ميل هذا القلب بين زوجاته ولو حرص واجتهد وبذل غاية الجهد ومنتهى الطّاقة . وإنّ الآية الكريمة بشأن ما سوى الميل القلبى تأمر بالعدل . قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل ﴾ .

إنّ الآية الكريمة تنهى الأزواج الّذين تزوّج الواحد منهم أكثر من زوجة ، بعد أن قرّرت أنّهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين الزّوجات بشأن ميل القلب إلى واحدة بأكثر من الأخرى ولو حرصوا ، إنّ الآية الكريمة تنهى الأزواج عن أن يتّخذوا ذلك الميل القلبى الّذى عفا اللّه تعالى عنه مطيّةً للميل والظّلم وعدم العدل بشأن ما يملك الإنسان ، وله عليه سلطةٌ ، من قَسْمٍ أو نفقةٍ أو عشرةٍ حسنة وما إلى ذلك . إنّ الميل القلبى إذا كان معفوّاً عنه ومغفوراً لمرتكبه فضلاً من اللّه تعالى ومِنّة ، فإنّ الميل غير القلبى ذنبٌ كبير وإثمٌ عظيم فى حق الزّوجة يغفره اللّه تعالى إذا شاء ، وقد جاء فى هذه السّورة الكريمة فى موضعين اثنين القول : ﴿ إنّ اللّه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ إنّ الآية الكريمة تنهى من تزوج بأكثر من واحدة أن يردف الميل القلبى بميلٍ آخر وحَيْفٍ وجَنَفٍ فيما يملك وهو ما عبّر عنه بالميل كلّ الميل حتّى تبدو

الزّوجة الّتى مال عنها زوجها كلّ الميل إلى أخرى وكأنّها معلّقة . قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضّحّاك والرّبيع بن أنس والسّدّى ومقاتل ابن حيّان معناه لا ذات زوجٍ ولا مطلّقة [١] لا هى ذات زوج ولا هى أيِّم [٢] .

والحقيقة أنّ هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حرصتم فلا تميلوا كلّ الميل فتذروها كالمعلّقة ﴾ يذكّرنا بقوله تعالى فى سورة الشّورى [٣] : ﴿ اللّه الّذى أنزل الكتاب بالحقّ والميزان . وما يدرك لعلّ السّاعة قريب ﴾ وبقوله تعالى فى سورة الحديد [٤] : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم النّاس بالقسط ﴾ وبقوله تعالى فى سورة الرّحمن [٥] : ﴿والسّماء رفعها ووضع الميزان . ألاّ تطغَوْا فى الميزان. وأقيموا الوزن بالقسط ولا تُخْسِروا الميزان ﴾ .

إنّا حينما نتمثّل ميزاناً ذا كفّتين نتبيّن أنّ العدل يقتضى تساوي الكفّتين ، فإذا كان الموزون أقلّ شالت إحدى الكفّتين وقيل : شال الميزان ، بمعنى ارتفعت إحدى كفّتيه على الأخرى .

وإنّا حينما نتمثّل العدل بين زوجتين أو أكثر نتمثّل كفّتي الميزان مستويتين فى حقّ كلّ زوجتين . فإذا كان نصيب واحدة أقلّ تمثّلنا كفة الميزان التى فيها هذه الزّوجة ، أو تمثّلنا كفّة العدل الّتى تمثّل هذه الزّوجة قد شالت أو تعلّقت فى الهواء وارتفعت . إنّ : « العين واللاّم والقاف أصلٌ كبيرٌ صحيحٌ يرجع إلى معنى واحد ، وهو أن يناط الشّىء بالشّىء العالى »[٦] فمثلاً العُلَّيق نباتٌ معروفٌ يتعلّق بالشّجر ويلتوى عليه[٧] والعَلَق العِصام بمعنى الحبل الّذى يُشدّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٤ .
(٢) تفسير الطبرى ٥/ ٢٠١ .
(٣) الآية : ١٧ .
(٤) الآية : ٢٥ .
(٥) الآيات : ٧ - ٩ .
(٦) معجم مقاييس اللّغة لابن فارس « علق » ٤/ ١٣١ .
(٧) لسان العرب « علق » .

فتحمل به القرْبة : « وفى الحديث : خطبنا عمر رضى اللّه عنه فقال : أيّها النّاس ، ألا لا تُغالوا بصَداق النّساء فإنّه لو كان مكرُمةً فى الدّنيا وتقوى عند اللّه كان أولاكم بها النّبىّ ﷺ ، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أُصْدقت امرأةٌ من بناته أكثر من ثنتى عشرة أوقيّة . وإنّ الرّجل ليُغالى بصداق امرأته حتى يكون ذلك لها فى قلبه عداوةً حتّى يقول قد كَلِفْتُ عَلَقَ القرْبة . . . قال أبو عبيدة : عَلَقُها عِصامها الّذى تعلّق به ، فيقول : تكلّفت لك كلّ شىء حتّى عصامَ القربة . والمعلّقة من النّساء : الّتى فُقد زوجُها . قال تعالى : ﴿فتذروها كالمعلّقة﴾ . وفى التّهذيب : وقال تعالى في المرأة الّتى لا ينصفها زوجها ولم يخلّ سبيلها : فتذروها كالمعلقة ، فهى لا أيّم ولا ذات بعل . وفى حديث أمّ زرع : إن أنطق أُطَلَّق ، وإن أسكُتْ أعُلَّق ، أى يتركنى كالمعلَّقة لا ممسكةً ولا مطلّقة»(١) .

إنّ المرأة الّتى يميل عنها زوجها كلّ الميل إلى زوجة أخرى أو زوجات أخر بمثابة المرأة المعلّقة الّتى ليست بذات زوج لأنّ زوجها يظلمها حقوقها ، وليست مطلّقة كى يغنيها اللّه تعالى من سعته بزوج أفضل لها منه . وإنّ حال هذه المرأة المعلّقة حال كفّة الميزان الّتى شالت فى الهواء وتعلّقت فيه . إنّها من ناحية لم تنل حظّها الّذى نالته الكفّة الأخرى ، وإنّها من ناحية أخرى محسوبةٌ جزءاً من الميزان الّذى وُضع من أجل العدل وما أبعد العَدْلَ فى حقّها .

عن عائشة قالت كان رسول اللّه ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ثمّ يقول اللّهمّ هذا قَسْمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك ، يعنى القلب(٢) وعن أبى هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ من كانت له امرأتان فمال إلى إحداها جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط(٣) .

---

(١) لسان العرب « علق » وانظر معجم مقاييس اللّغة « علق » ٤/ ١٢٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٤، وتفسير الطّبرى ٥/ ٢٠٣.
(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٤ ، وتفسير الطّبرى ٥/ ٢٠٣.

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وإن تصلحوا وتتّقوا فإنّ اللّه كان غفوراً رحيماً﴾ ومن البيّن العلاقة بين الصّلح فى التّذييل وبين صدر الآية الكريمة ، فالمطلوب من الزّوج الّذى تجاوز الميل فيما لا يملك إلى الميل فيما يملك أن يصلح من ميله وأن يقيم من عِوَجه . وكما اقترنت التّقوى فى الآية الكريمة السّابقة بالإحسان اقترنت هنا بالإصلاح : « وإن تصلحوا وتتّقوا» وكما تناغمت الخبرة والعلم بالباطن فى حقّ الذّات العليّة كالعلم بالظّاهر وذلك فى الآية الكريمة السّابقة ، تناغمت المغفرة والرّحمة فى هذه الآية مع الميل ومع الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أقوم . إنّ الميل القلبى معفوّ عنه . وإنّ الميل فيما وراء ذلك معفوّ عنه فى حال التّوبة والإيمان وعمل الصّالحات ومن ذلك إصلاح الميل. وإنّ الإرشاد إلى معالم الدّين والحثّ على إصلاح ذات البيّن مع الزّوجة وعلى تقوى اللّه تعالى ومراقبته جلّ وعلا فيها من مظاهر رحمة اللّه تعالى بعباده التى وسعت كل شئ .

ومن البيّن أن المغفرة خطوة فى سبيل الرحمة لأنّ الرّحمة تشمل المغفرة بمعنى ترك المؤاخذة على الذّنب وستره كما تشمل الرّحمة الّتى من سماتها أنّها واسعة . وإنّ هذه السّعة المقترنة برحمة اللّه تعالى رشّحت لمجئ الإشارة إلى السّعة فى حقّ الذّات العليّة فى موضعين اثنين فى الآية الكريمة التّالية فإلى:

الآية رقم (١٣٠)

قال تعالى : وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

تتحدّث الآية الكريمة عن آخر الخطوات الّتى تتّخذ لإنهاء العلاقة الزّوجيّة، وهى آخر الخطوات كما أنّها أبغضها أعنى الطّلاق . عن عبد اللّه بن عمر قال : قال رسول اللّه ص : أبغض الحلال إلى اللّه الطّلاق . رواه أبو داود وابن ماجة[1] إنّ الآية الكريمة تبيّن أنّ الزّوجين إن يتفرّقا بالطلاق بعد

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٣.

استنفاد كلّ الوسائل السّابقة فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يعد ، ووعده الحقّ ، بأنّه سوف يغنى كلاً من الزّوجين من سعته ومن رحمته الّتى وسعت كلّ شئ . ومن سعة رحمة اللّه تعالى أن يحصل كلٌّ من الزّوجين على الزّوج الأكثر ملاءمةً له وحبّا ، رأفةً به وحَدْبا ، وأن ينال الحياة الطّيّبة وراحة البال . قال تعالى ﴿ وإن يتفرّقا يغن اللّه كلاً من سعته ، وكان اللّه واسعًا حكيمًا﴾.

ومن البيّن تناغم التّذييل مع الصّدر . إنّنا بصدد السّعة . وينبغى أن تشمل كلّ سعة ، ابتداءً بالرّحمة التى تفيدها لفظة «سعة» السّابقة . كما أنّنا بصدد الحكمة . إنّ الحكمة سمة كلّ الأحكام والإرشادات وكلّ معنى أشارت إليه الآيات الكريمات، ابتداءً بآخر علاج وأبغضه إلى اللّه تعالى وهو الطّلاق الّذى أشار إليه صدر الآية الكريمة وقرّره.

وعلى غرار التّنبيه إلى أنّ للّه تعالى ما فى السّماوات والأرض ملكًا وخلقًا وعبيدًا وذلك إثر الحديث عن ثواب اللّه تعالى لكلّ محسن ، وعقابه لكلّ مسئ ، والحديث عن دين الإسلام الّذى بعث اللّه تعالى به محمّد بن عبد اللّه ﷺ وكونه أحسن الأديان والنّاسخ لها ، على غرار ذلك التّنبيه السّابق يأتى تنبيهٌ لاحق إلى أن للّه ما فى السّماوات وما فى الأرض ، وذلك إثر الحديث فى شئون المستضعفين وفى مقدّمتهم النّساء كى يفهم كلّ قوىّ ، ابتداءً بظالمى الأزواج ، أنّ اللّه سبحانه وتعالى أكبر من كل كبير ومتكبّر وهاتان هما .

الآيتان رقم (١٣١ ، ١٣٢)

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

إنّ المستضعفين من النّساء ويتامى النّساء والولدان ، وإنّ النّساء اللاّتى اصطلحن مع أزواجهنّ أو ظلمهنّ أزواجهنّ ، وإنّ الرّجال الظالمين زوجاتهم أو المظلومين ، وإنّ الأزواج الّذين يقع بينهم الطّلاق الّذى له فى العادة آثارٌ سيّئة على الزّوجين أو على أحدهما ، إنّ كلّ هؤلاء الضّعفاء والأقوياء عليهم أن يعلموا جيّدًا أنّ لهم ربًّا عليًّا كبيرًا له ما فى السّماوات وما فى الأرض ، فعليهم جميعاً أن يتّجهوا إليه جلّ وعلا وحده لا شريك له يستعينونه ويستهدونه . وإنّ على هؤلاء جميعًا أن يتّقوا اللّه تعالى وحده لا شريك له فى كلّ أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم فبهذه التّقوى أوصى اللّه تعالى وأمر(١) الّذين أوتوا الكتاب من قبلنا من اليهود والنّصارى، وبهذه التّقوى أوصانا ربّنا جلّ وعلا، كما أوصى حبيبه المصطفى ﷺ، وقد غفر اللّه تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخّر، وأمره جلّ وعلا بها فى محكم كتابه وذلك فى قوله تعالى فى سورة الأحزاب(٢) : ﴿ يا أيّها النّبىّ اتّق اللّه ولا تطع الكافرين والمنافقين . إنّ اللّه كان عليمًا حكيمًا﴾ .

وحينما يكون الأزواج قد خوطبوا بالقول : ﴿وإن تحسنوا وتتّقوا﴾ ﴿وإن تصلحوا وتتّقوا﴾ وهو خطابٌ يتّجه إلي كلّ عباد اللّه تعالي ، وحينما نكون هنا بصدد وصيّة من اللّه تعالى وأمر بالتّقوى ، يكون كلّ ذلك دليلاً على أهميّة تقوى اللّه تعالى الّتى تعتبر الوجه الآخر للإحسان بل هى الإحسان ذاته بأن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . إنّ من اتّقى اللّه تعالى له الأجر الكريم والثّواب العظيم ، أمّا من كفر فإنّ له العذاب الأليم ولن يفوت الله سبحانه وتعالى الّذى له ما فى السّماوات وما فى الأرض . ويلاحظ أنّه يجئ فى هذه الآية الكريمة وحدها مرّتين اثنتين النّصّ على أنّ للّه ما فى السّماوات وما فى الأرض. وسبق أن جاء النّصّ على ذلك فى القول : ﴿ وللّه ما فى السّموات وما فى الأرض. وكان اللّه بكلّ شىءٍ محيطاً﴾ وسوف يأتى

(١) تفسير الطّبرى ٥/ ٢٠٤ .

(٢) الآية : ١ .

النّصّ على ذلك فى الآية الكريمة التّالية.

ولمّا كان العبد الّذى يعمل الصّالحات هو المستفيد منها لأنّه سيثيبه اللّه تعالى عليها ، وكان العبد الّذى يعمل السّيّئات هو الخاسر الوحيد لأنّه سيعاقبه اللّه تعالى عليها ، وكنّا بصدد الإشارة إلى الكافرين من مشركين ومنافقين وجاحدين نعم اللّه تعالى ، فقد كان فى التّذييل ما ينبّه إلى غنى اللّه تعالى عن هؤلاء الكافرين وكونه جلّ وعلا المحمود على كلّ أحكامه ، ومنها ثواب المتّقين وعقاب الكافرين ، وعلي كل أقواله وأفعاله وأقداره ، وعلى كلّ شئ لا إله غيره ولا معبود بحق سواه . قال تعالى : ﴿وللّه ما فى السّماوات وما فى الأرض . ولقد وصّينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتّقوا اللّه . وإن تكفروا فإنّ للّه ما فى السّماوات وما فى الأرض وكان اللّه غنيّاً حميداً ﴾.

أما وقد نال المحسن ثوابه ونال المسئ عقابه فإنّ الآية الكريمة التّالية بقصد التّنبيه إلى فعل اللّه تعالى الغنىّ الحميد ما يشاء فى ملكوته ، تعود إلى تقرير ملك اللّه تعالى ما فى السّماوات وما فى الأرض ، وإلى تقرير حفظ اللّه تعالى لهذا الملكوت وقيّوميّته جلّ وعلا عليه . قال تعالى : ﴿ وللّه ما فى السّماوات وما فى الأرض وكفى باللّه وكيلا﴾ يعنى بذلك جلّ ثناؤه : وللّه ملك جميع ما حوته السّماوات والأرض وهو القيّم بجميعه والحافظ لذلك كلّه لا يعزب عنه علم شئٍ منه ولا يئوده حفظه وتدبيره(١) .

ولمّا كان آخر خطاب فى الآية الكريمة قبل السّابقة متعلّقاً بكفر العباد وبكفرانهم النّعم وذلك فى القول : ﴿ وإن تكفروا﴾ وكان هؤلاء الكافرون لا يحقّقون الهدف الّذى خلقهم اللّه تعالى من أجله وهو عبادته جلّ وعلا وحده لا شريك له فقد كان حديث الآية الكريمة التّالية فى تفاهة هؤلاء الكافرين وحقارتهم فإلى :

---

(١) تفسير الطّبرى ٥/ ٢٠٥ .

الآية رقم (١٣٣)

قال تعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

خلق اللّه سبحانه وتعالى الخلق كي يفردوه جلّ وعلا بالعبادة وقد قال عزّ من قائل(١) : ﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون﴾ وحينما يكفر النّاس ولا يؤمنون ولا يشكرون فهل يظنّ أولئك الكافرون أنّ عاقبة كفرهم تعود على غيرهم؟ وهل يظنّ أولئك الكافرون أنّ اللّه سبحانه وتعالى بحاجة إليهم حينما يدعوهم إلى الإيمان به والشكر له ؟ قال تعالى(٢) : ﴿ يأيّها النّاس أنتم الفقراء إلى اللّه واللّه هو الغنىّ الحميد﴾ إنّ النّاس حينما يكفرون ويصرّون على الكفر يأخذهم اللّه تعالى أخذ عزيز مقتدر إن شاء . وهذه الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدث فى هذا الشّأن . وممّا يلفت النّظر فى الآية الكريمة القول يذهبكم من الفعل أذهب الّذى يفيد هنا أنّ الكافرين المهينين الحقيرين أذهبهم اللّه تعالى بأن سلّط عليهم وأرسل عليهم بعضًا من جنده الّتى لا يعلمها إلا هو جلّ وعلا . ويبدو الفرق جليّاً بين أذهب الشّئ بالمعنى الذى تبيّنّا وبين ذهب بالشئ، لأنّ الباء هنا تفيد المصاحبة الّتى قد تفيد المباشرة الشّخصيّة للعمل. كما يلفت النّظر هنا مجئ لفظة « النّاس» الّتى تشمل كلّ النّاس من كافرين ومنافقين ومؤمنين عصاة . كما يلفت النّظر هنا كذلك مجئ جملة «يأت» والمعروف أنّ جملة «أتى» لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد المكانىّ أو الزّمانىّ أو النفسىّ وأنّ جملة «جاء» لا تستعمل فى القرآن الكريم إلا دليلاً على القرب المكانىّ أو الزّمانىّ أو النفسىّ . وكأن جملة «يأت» فى القول: ﴿إنْ يشأ يذهبكم أيّها النّاس ويأت بآخرين﴾ تشير هنا إلى استبعاد هؤلاء النّاس المنحرفين عن الصّراط المستقيم أن يأخذهم العذاب أو أن يذهبهم

(١) سورة الذّاريات : ٥٦ .

(٢) سورة فاطر : ١٥ .

اللّه تعالى وأن يأتى بآخرين يخلفونهم . وإن جملة «يأت» الّتى قوّت ما قبلها من دلالة على قدرة اللّه تعالى الّتى يُذْهب بها النّاس هيّأت لمجئ التّذييل بعدها المتضمّن لهذه القدرة قال تعالى : ﴿ وكان الله على ذلك قديرا﴾ وإنّ صيغة المبالغة «قديرا» تشير إلى القدرة النّامية فى الآية الكريمة والّتى بلغت قمّتها فى صيغة المبالغة «قديراً» .

وحيما نفتّش عن السّبب المهمّ الّذى جعل الكافرين والمنافقين والعاصين من المؤمنين ينحرفون عن سواء السّبيل نتبيّن أنّه حبّهم لهذه الحياة الدّنيا الّذى أعماهم وأصماهم بمقدار بعدهم عن سبيل اللّه تعالى . وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث فى هذا الشّأن فإلى :

الآية رقم (١٣٤)

قال تعالى :

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

إنّ النّاس فى مجموعهم ضعاف الهمم قصيروالنّظر . إنّ الكافرين يعدّون الحياة الدّنيا غاية همّهم ومنتهى علمهم ، وكذلك المنافقون الّذين ذاقوا لحظةً من اللّحظات حلاوة الإيمان وبرد اليقين وأبصروا نور الحقيقة ولكنّهم آثروا العاجلة على الآجلة ، الكفر على الإيمان . ووراء ذلك ادّعوا الإيمان . وإنّ بعض المؤمنين ذُهلوا بزخرف الحياة الدّنيا عن الآخرة فهم حينما يَدْعون اللّه تعالى يسألونه ثواب الدّنيا على نحو ما يسأل الكافرون فى الجاهلية . وقد أشارت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[1] إلى هذا الفريق . قال تعالى : ﴿ فَمِنَ النّاس من يقول ربّنا آتنا فى الدّنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ والمعنى أنّ هذا ليس له فى الآخرة نصيبٌ من خير . أمّا المؤمن فإنّه الّذى تصفه الآية الكريمة التّالية

(١) الآية : ٢٠٠ .

من سورة البقرة[١] قال تعالى : ﴿ومنهم من يقول ربّنا آتنا فى الدّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار﴾.

إنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تدور حول هذه المعانى وتحثّ على جليل الأعمال وخطيرها من أجل عظيم الثّواب وجزيله ، ومن أجل الحياة الطّيّبة فى الأولى والآخرة . قال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدّنيا فعند اللّه ثواب الدّنيا والآخرة . وكان اللّه سميعًا بصيراً ﴾ والمعنى أنّ ضعاف الهمم وقصيرى النظر لا يهتمّون لغير هذه الحياة الدّنيا الّتى يجعلونها منتهى همّهم ومبلغ علمهم ، والّتى لا ينظرون إلى ما وراءها ولا يطمحون إلى ما بعدها ، وقد قال عزّ من قائل عن هذه الحياة الدّنيا فى سورة الحديد[٢]: ﴿ اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفّار نباتُه ثمّ يَهيج فتراه مصفرّا ثمّ يكون حطاماً . وفى الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللّه ورضوان . وما الحياة الدّنيا إلا متاع الغرور﴾ . أمّا من نوّر اللّه تعالى بصيرته فإنه يجعل الآخرة منتهى همّه كى تطيب له الحياة بإذن اللّه تعالى فى الجنّة الّتى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . وإنّ الحياة الطّيّبة الحسنة إنّما تدرك بعمل الصّالحات واتّباع هدى اللّه تعالى كما تبيّن فى القرآن الكريم وسنّة المصطفى ﷺ . وقد جاء فى سورة طه[٣] القول : ﴿ فإمّا يأتينّكم منّى هدىً فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى﴾ قال ابن عبّاس : فضمن اللّه لمن اتّبع القرآن ألاّ يضلّ فى الدّنيا ولا يشقى فى الآخرة[٤] وإنّ الهداية فى الدّنيا هى الحياة الطّيّبة الّتى أشارت إليها آية سورة النّحل[٥] قال تعالى : ﴿من عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينّه حياةً طيبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون﴾ وهى الّتى عبرّ عنها بحسنة الدّنيا فى قوله تعالى فى سورة البقرة[٦] :﴿ومنهم من يقول ربّنا

(١) الآية : ٢٠١ .
(٢) الآية : ٢٠ .
(٣) الآية : ١٢٣ .
(٤) تفسير القرطبى : ٧ .
(٥) الآية : ٩٧ .
(٦) الآية ٢٠١ .

آتنا فى الدّنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقنا عذاب النّار﴾ ويلاحظ أنّ الآية الكريمة حثّت المؤمنين على أن يسألوا الله تعالى أن يؤتيهم فضلاً منه تعالى ومنّةً حسنة الحياة الدنيا وحسنة الآخرة ، وهى الّتى عبّرتْ عنها آية سورة النّحل بالحياة الطّيّبة . وإنّ الآية الكريمة التى نحن بصددها لتحثّ المؤمن على أن يكون كبير النّفس عظيم الهمّة ، فلا يكتفى بثواب الدّنيا المقطوع عن ثواب الآخرة فإن هذا الثواب أو الجزاء يشترك فيه المؤمن والكافر البرّ والفاجر ، ولكن عليه أن يحرص على ثواب الحياتين الأولى والآخرة . إنّ ما يصحّ أن يناله فى هذه الحياة الأولى البرّ والفاجر أشارت إليه هذه الآية الكريمة من سورة البقرة[1] بالقول : ﴿ فمن النّاس من يقول ربّنا آتنا فى الدّنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ ويلاحظ أنّ الآية لا تصف ما يريده هذا الفريق من النّاس بأنّه الحسنة فى الأولى ، إنّما تقف عند ما يريدونه دون وصف حسن له ممّا هو دليلٌ على أنّه غير حسن . وهذا المعنى عبرّت عنه الآية الكريمة من سورة النّساء بالقول : ﴿من كان يريد ثواب الدّنيا ﴾ أمّا ما يناله البرّ فى الآخرة ويناله كذلك فى الأولى من حياة طيّبة فإنّ آية سورة النّحل وصفته بالحياة الطّيّبة ، ووصفته آية سورة البقرة بأنّه الحسنة فى الأولى والحسنة فى الآخرة . وهذا المعنى عبّرت عنه الآية الكريمة من سورة النّساء بالقول : ﴿ فعند اللّه ثواب الدّنيا والآخرة﴾.

ومن الواضح التّناغم بين التّذييل ﴿ وكان اللّه سميعًا بصيراً﴾ وبين صدر الآية الكريمة . إن اللّه سبحانه وتعالى هو السّميع لكل صوتٍ مهما خفت ، البصير بكلّ عمل وبالباعث عليه ، فلا يخفى عليه جلّ وعلا من يريد بعمله الصّالح الدّنيا، ومن يريد بعمله الصّالح فى الدّنيا حسنة وفى الآخرة حسنة، ثواب الدّنيا وحسن ثواب الآخرة .

(١) الآية : ٢٠٠ .

(١٦)
كونوا قوّامين بالقسط شهداء للّه ،
وحقّقوا أركان الإيمان
الآيتان (١٣٥ ، ١٣٦)

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن
تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

دارت آيات القسم قبل السّابق حول الخائنين الآثمين الّذين حرصوا على تبرئة الخائن البرئ بالسّرقة للدّرجة الّتى كادوا معها يحملون المصطفى ﷺ على تبرئة الخائن وبالتّالى اتّهام البرئ لولا أن عصمه اللّه تعالى من ذلك . ودارت آيات القسم السابق حول تقرير حقيقة أنّ الدّين عند اللّه الإسلام ، وأنّ للّه ما فى السّماوات وما فى الأرض ، وحول الحثّ على التّقوى أو الإحسان بأنْ تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك . وإنّ آيتي هذا القسم الكريمتين تدور أولاهما حول الشّهادة الّتى حاول أن يعبث بها الخائنون الآثمون ، وتدور أخراهما حول وجوب عمل المؤمن على زيادة إيمانه . لقد كان ترتيب عناصر الإيمان معجزاً حينما كان فى الآية الكريمة الأخرى الأمر بالإيمان ، وحينما كان فيها تهديد للكافرين بأركان الإيمان .

الآية رقم (١٣٥)

قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾

تنادى الآية الكريمة الّذين آمنوا باللّه ربّاً ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمّد ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وبالقرآن الكريم دستوراً ، وتأمرهم بأن يكونوا قوّامين بالقسْط ، هكذا فى صيغة جمع المبالغة قوّام ، وليس فى صيغة جمع اسم الفاعل قائم . وإذا كان القائم بمعنى الحافظ للشّئ المراعى له[1] فإنّ القوّام بمعنى الأكثر حفظا للشّئ ومراعاةً له ومداومةً عليه . ولمّا كان القِسط بمعنى العدل [2] وبمعنى

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «قوم» ٤١٦ ، ٤١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٦٥.

النّصيب بالعدل كالنَّصَف والنَّصَفة ، وكان الإقساط بمعنى أن يُعطِي قِسْط غيره وذلك إنصاف ، فإنّ الأمر فى صيغة المبالغة بالقيام بالقسط فى القول : « كونوا قوّامين بالقسط » يذكّرنا بالنّهى عن الخيانة بطريق غير مباشر وفى صيغتى المبالغة خوّان وأثيم وذلك فى القول فى الآية الكريمة السّابعة بعد المائة : ﴿ إنّ اللّه لا يحبّ من كان خوّانًا أثيما﴾ خاصّةً وأنّ مناسبة الآيتين الكريمتين واحدة هى الشّهادة التى حاول أن يعبث بها قوم بنى أبيرق .

ومع أنّ القول : « كونوا قوّامين بالقسط » ينسحب على كلّ الأمور فإنّ تحوّل الحديث إلى الشّهادة يجعل حظّ الشّهادة من العدل هو الموفور بسبب خطورة الشّهادة ودورها فى إحقاق الحقّ إن كانت على وجهها ، وفى ترسيخ قواعد الظّلم إن كانت زوراً ، قال تعالى : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء للّه﴾ والمعروف أنّ شهداء جمع شهيد . وإذا كان لفظ الشّاهد يطلق على الشّخص فى حال الشّهود والشّهادة بمعنى الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة ، وإذا كانت الشّهادة عبارةً عن قول صادرٍ عن علمٍ حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة[1] وكان الشّاهد اسم فاعل فكيف بصيغة المبالغة شهيد؟ إنّ المفروض فى الشّهيد أن يكون قمّةً فى تمثّل الشّهادة وفى أدائها .

وإذا كنّا نفهم من القول : ﴿ كونوا قوّامين بالقسط ﴾ صلاح الأقوال والأعمال فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وسنّة أشرف الأنبياء والمرسلين ، وصفة الصّلاح تمثّل أحد الشّرطين اللّازمين لقبول الأعمال ، فإنّا يصحّ أن نفهم الشّرط الآخر وهو أن يكون رضا اللّه تعالى الهدف من القول والعمل وذلك من القول فى حقّ الشّهادة محور حديث مجموعةٍ كبيرةٍ من آيات السّورة الكريمة: ﴿شهداء للّه﴾.

إنّ الغاية من الإدلاء بالشّهادة يجب أن تكون ابتغاء وجه اللّه تعالى وليس الرّياء والسّمعة وليس أى غاية شخصيّة شريفة أو خسيسة ، ولهذا جاء فى الآية

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «شهد» ٢٦٨.

الكريمة القول : ﴿ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ .

ومن البيّن بشأن هذه الفئات الثّلاث التّحوّل من الذّات إلى الأقرب فالقريب وهكذا . إنّ المطلوب من المسلم للّه ربّ العالمين أن يكون قوّامًا بالعدل، مدليًا بشهادة الحقّ ، فى حقّ ذاته ، وفى حقّ الوالدين ، وفى حقّ الأقربين ، ومن باب الأولى فى حقّ الّذين يأخذون فى الابتعاد باطّراد . إنّ على المسلم للّه ربّ العالمين ألاّ تأخذه في اللّه لومة لائم . وتبدو قمّة الامتثال لتعاليم هذا الدّين الحنيف فى المسألة حينما ينصف الإنسان الآخرين من ذاته ، وحينما يدلى بشهادة الحقّ سواء أكان ذلك فى مصلحته أم فى مصلحة الآخرين.

وتؤكّد الجزئية الكريمة التّالية الأمر بإقامة القسط وعدم كتمان الشّهادة بالنّهى عن اتّباع الهوى مع تبيين الباعثين الغالبين على اتّباع الهوى وهما الطّمع فيما فى يد الغنىّ أو العطف علي الفقير . قال تعالى : ﴿ إن يكن غنيًا أو فقيراً فاللّه أولى بهما فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ .

لقد جرت العادة بأنّ كثيراً من النّاس لا يقومون بالعدل ولا يؤدّون الشّهادة وإذا أدّوها فعلى غير وجهها طمعًا فيما فى يد الغنى أو خوفاً من بطشه، ولكون هذه الحال هى الغالبة قدّمها السّياق فى الذّكر . وأحيانًا يفعل النّاس ذلك إشفاقاً على الفقير ورحمةً بالضّعيف مع العلم بأن الحقّ ليس مع أى واحد منهما . ولكون هذه الحال تحدث أحيانًا أخّرها السّياق فى الذّكر : ﴿إن يكن غنيًا أو فقيرًا فاللّه أولى بهما﴾ .

إنّ الواجب عليكم أيّها المؤمنون أن تكونوا قوّامين بالقسط وأن تأتوا بالشّهادة على وجهها ابتغاء مرضاة اللّه تعالى وخوفاً من عذابه ، ولا يعنيكم أيّها المؤمنون فى قليل أو كثير ، أن يكون الّذى عليه الحقّ أوله غنًا أو فقيرًا ، قويّاً أو ضعيفاً . إنّ هذه الفروق ليس لها من وجود أمام العدالة وفي حقّ الشّهادة ، فعليكم أن تكونوا قوّامين بالعدل ، مدلين بشهادة الحقّ ، كى يقوم